سلسلة شهادات سورية 2

إلى ابنتي

هنادي زحلوط







سلسلة «شهادات سورية»

هنادي زحلوط

إلى ابنتي

سلسلة شهادات سورية -2- إلى ابنتي

هنادي زحلوط

الإخراج الفني: فايز علام

لوحة الغلاف: عزّة أبو ربعية

تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-37-2

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية

«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

الناشر:

بيت المواطن للنشر والتوزيع

دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

هاتف: 78840213 961+

بريد إلكتروني:

baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي

شارع الحمرا ـ بناء رسامني

ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان

هاتف: 750054 1 961 +

فاكس: 750053 1 961 +

بريد إلكتروني:

atlasbooks@gmail.com

الإهداء:

إلى ابنتي التي لم تأتِ بعد..

متمنية لها ولكل أطفال سورية حلاوة العمر كله..

«يا محلى الفسحة..»

يستدعيني المحقق، ويقول لي: «أهلين هيام!».

لم أردّ.. أفاجأ بأنه يعرفني جيداً، ويعرف من هي «هيام»! أقف في زاوية الغرفة الباردة، مكتب أسود كبير في صدرها، والمكيّف يجعل جسدي يقشعرّ برداً. لطالما توقعت هذه اللحظة، تمر بذاكرتي كل لياليّ على النت، المقالات التي كتبتها، الفيديوهات التي شاهدتها، وكل أصدقائي من المعتقلين السابقين واللاحقين، وأشعر أكثر ببرودة الغرفة. يدخل ضابط آخر: «بتعرف مين هيام جميل؟ هَيْ هيام!».

يتطلع إليّ شزراً، أحسُّ بأنني حيوان من فصيلة نادرة تمّ اصطياده ووضعه في قفص للفرجة، ورغم ذلك أبقى متماسكة، أعرف أن هذا عمله في النهاية، وأن عملي هو ألا أتحدث، على الأقل الآن، ريثما أستوعب الصدمة فقط. يراني قد لزمت الصمت، يستدعي المحقق عنصراً ويقول له: «خدها ع المنفردة..»، ثم ينظر إليّ غاضباً، و يقول رافعاً حدّة نبرته: «احتمال يكون فيه جرادين، بتتسلي معهن شويّ..».

أبتسم والعنصر المسكين ينفذ الأوامر باقتيادي إلى المنفردة، عبر ممر يتوسط طوابق من أسرّة العناصر، التي تتناثر فوقها ملابسهم التي تفوح منها رائحة العرق، نصل إلى آخر الممر، يعترضنا ممر يفصل بين صفي زنازين، كاميرات مراقبة تملأ الممر، يفتح باب الزنزانة الأولى على

يساره، بابها حديدي أسود، حيّز مظلم يطبق عليّ، عندما أغلق العنصر الباب بقوة، وأقفله ملأ المكان ضجيج عنيف!

تبدأ عيناي باعتياد الظلام، أتلمّس مصطبة تتبدّى لي عن يميني، على المصطبة بطانية سوداء تفوح منها رائحة كريهة، عن يساري صنبور ماء وصحن فيه بقايا طعام، وفي المسافة بيني وبين الجدار توجد دورة مياه، فُتحت في الأرض كنافذة شيطانية على روائح لا تطاق!

وأفكر، إذاً هذه هي المنفردة التي تحدث عنها أصدقائي، انفرادية معدّة لحياة بهيمية، عرضها متر ونصف، وطولها متران، في منفردة أصغر من هذه أمضى رياض الترك سبع عشرة سنة، في منفردة أخرى أمضى صديقي أبو علي ثلاث سنوات، وفي المنفردات الأخرى بجواري ربما يقبع أصدقائي، ومن يعلم متى سنخرج؟

أحسُّ بالتعب يتسرب إلى قدميّ، أجلس على المصطبة المرصوفة بالبلاط، الصراصير بالعشرات تمرح في المكان، طاقة منفردتي الصغيرة مفتوحة، ومنها يتسرب بعض الضوء من الممر، الضوء الأصفر الشاحب، وبمساعدة هذا الضوء أستطيع رؤية ما حُفر على الحيطان: أسماء لشبان وفتيات مروا من هنا، أحمد، رودي، وبضع كلمات بلغات أخرى، و«واحدات» اصطفت في طوابير طويلة ليتمكن المعتقل من حساب الأيام المتشابهة التي مضت على اعتقاله، وتناثرت هنا وهناك كالأزهار كلمة: حرية!

وبين الاستيعاب وعدمه، أتذكر كيف اتصل بي عاصم ليدعوني إلى فنجان القهوة الرهيب الذي انتهى في فرع الأمن السياسي، وصولاً إلى هذه المنفردة: ضرب لي موعداً لنتحدث عن مظاهرة «البنفسج»، ورغم أني أخبرته أن وقتي يضيق وأن عليّ اللحاق بالباص المتجه إلى اللاذقية، كي أكون في رابع أيام رمضان على مائدة الإفطار مع عائلتي، إلا أنه أصر على أنه يجب أن نشرب القهوة معاً!

إذاً لن يكون هنالك إفطار هذا المساء مع أمي، ستقلق إذا قال لها

إخوتي إن هاتفي مغلق. ربما لن يغلقوه، ربما سيبقونه مفتوحاً ليعرفوا من سيتصل، سيتصل إخوتي فقط، فكل أصدقائي قبض عليهم في تلك القهوة المشؤومة في جرمانا، وقد تحول الأمر من مظاهرة بنفسج إلى اعتقال دموي!

الساعة تقارب الثالثة من بعد ظهر ذاك الخميس الأسـود، أحس باقتراب خطوات أحدهم من الممر، يخبط على الباب الحديدي بيديه قائلاً: «صحنَك..»، أقف وأعطيه الصحن الوحيد هنا، ويفاجأ وهو يمد يده ليأخذ الصحن من يدي، بوجهي!

يعيد لي الصحن مملوءاً بالأرز واللبن قائلاً بصوت منخفض، وهو يحاول ألا يتطلع في عينيّ: «خدي..»!

كان عنصران على الأقل مكلفين بتوزيع الطعام على المنفردات، أحدهما يخبط على الأبواب طالباً الصحن، والآخر يملؤه طعاماً، ليعيده الأول قائلاً: «كول وغسّل صحنَك بسرعة ولا».

وأبتسم إذ ألاحظ أنهم يكرّسون الخطاب إلى المذكر، وكأن اعتقال فتاة هنا هو استثناء لا يغيّر في اللغة شيئاً! أحبّ أن أفهم هذا الخطاب على أنه موجه إلى «الإنسان» بوجه عام، مذكراً أو مؤنثاً، وتروق لي الفكرة!

أنهي طعامي وأبقي فيه الفضلات، أتخيَّل حجم الفضلات الناتجة عن كل نزلاء هذا الفرع، يومياً، بالمقارنة مع من يجوع خارجاً، أطرد الفكرة من دماغي، وأغسلها بماء الحنفية البارد: «هلّق أنا مو مطلوب مني فكّر باللي عم يجوعوا برّا، ولا باللي عم يموتوا، مطلوب فكّر بحالي وبس..».

أتمدد على المصطبة، أصوات رش مياه وسحبها على أرض الممر الفاصل بين المنفردات، صوت المياه يعيد الحياة إلى أي مكان مهما كان موحشاً، أتذكر بركة المياه أمام منزلنا، أتذكر النهر، أتذكر أبي وأمي، وتنساب دمعة متمردة من طرف عيني.

تتناهى إليّ أصوات غسيل الصحون من المنفردات الأخرى، إنهم أصدقائي المعتقلون، ومثلي، لديهم عائلاتهم التي حُرمت رؤيتهم وحُرموا رؤيتها، إننا نأكل من القدر ذاته، الطعام ذاته، ونشرب من خزان واحد، ونعيش هنا معاً، تحت سقف واحد، وفي الظلام ذاته!

إنهم السوريون الذين خرجوا لقدَر واحد، أحس بأني لست وحيدة في هذا الطريق الطويل، هنالك الآلاف قبلي وحولي، وبعدي، أمواج بحر متتابعة تأبى إلا الذهاب إلى شاطئها الآمن والارتماء عليه!

وأدندن، وصوت المياه يملأ المكان، والضوء الشاحب يتسرب إلى زنزانتي: «يا محلى الفسحة يا عيني.. على راس البر.. والقمر.. نوّر.. عيني.. عيني.. على مو.. على موج البحر!».

«بكتب اسمك»!

كان يوماً من أيام آب، لاهباً وحارقاً، رائحة العرق تفوح من جسدي في زنزانتي الصغيرة، فتكاد تخنقني، أغلق طاقة الزنزانة من الداخل وأخلع ملابسي، لأفتح الحنفية وأترك الماء ينساب بارداً على جسدي. للأقبية ميزة رائعة، سوى الظلام والخوف، المياه هنا تبقى باردة، حتى في آب!

أجفّف جسدي بـ«قميصي» الداخلي القطني الأبيض، وأرتدي ملابسي، خشية استدعاء إلى تحقيق عاجل، وأسأل نفسي: كيف ستحول ألوان ملابسي، بعد أشهر من التعرق والغسيل والحمام في هذا القبو؟ ولا أعبأ بالإجابة، فحين سأتمكن من إدراك ما آلت إليه ألوان ملابسي، سأكون بالتأكيد قد عانقت نور الشمس!

أتمدد على المصطبة الحجرية، لا أحس بالبطانية الرقيقة، كل ما أحس به هو قسوة البلاط تحت جسدي الضعيف، واحتكاك فقراتي الناتئة بالبلاط، أتنفس رائحة جسدي المنتعش بالماء البارد، أرى الصراصير على الحائط تتقدم صوبي أسراباً، أنقر بأصابعي أمامها فتهرب. تُرى، هل يتّبعون معنا السياسة ذاتها؟ لا، إنهم لا ينقرون بأصابعهم، إنهم ينتعلون أحذية ثقيلة لا تقوى أجسادنا الضعيفة على مقاومتها، أي موت رمزي هذا؟!

أنهض رافضة عزلتي، أقف على الطاقة لأرى كاميرات المراقبة المنتشرة بكثافة في ممر الزنازين الانفرادية، طاقات الزنازين الباقية كلها

مغلقة وكلٌّ منشغل بعذاباته. أعنف تعذيب في الزنزانة هو انفصالك عن الآخرين، إحساسك بعزلتك في مواجهة عذابات الاعتقال، تفكيرك الدائم بما ستقوله أمام المحقق، هل سيقتنع؟ ماذا قال أصدقاؤك؟ ماذا يعرف المحقق عنك؟ وماذا جرى بعد اعتقالك؟ عائلتك؟ أصدقاؤك؟ أحباؤك؟

المرء في زنزانة الاعتقال، جسد يسقط بفعل ثقله في فراغ مظلم ليس له قاع، تبتلعه الزنزانة، وكلما حسب أن النهاية قد أزفت، يكتشف أن هنالك ما هو أسوأ!

استمرارك في الحياة، سيئ، انتحارك سيئ كذلك، التفكير في الأشياء السيئة مؤلم، وفي الأشياء المفرحة، أكثر إيلاماً!

بكل أسى، أنظر إلى جسدي النحيل، وأنا أتوقع التعذيب، أتذكر كلام صديقتي يارا: في الاعتقال عليكِ تذكر البحر وأنت تتطلعين إلى كل ما هو أزرق في غرفتك، استحضار اللهفة للورق الأبيض وأنتِ تنظرين إلى الحائط، التفكير في النوم في ظلام المنفردة، المحاولة في البحث عن اللذة أثناء الاغتصاب، لا تستسلمي لليأس أو الخوف!

تُرى هل ستتزوج يارا دون أن أتمكن من الرقص في حفل زفافها؟

آه يا يارا! مؤلم هو تذكّر الأشياء الجميلة، مؤلم يا صديقتي، أرى بنطالي الأزرق، فأتذكر عندما قلتِ لي إنه جميل عليّ، وأنظر إلى الحائط الأبيض فأتذكر تجوّلنا في السوق ووقوفك وابتسامة خجولة على شفتيك تنظرين إلى فساتين الأعراس البيضاء، أتذكّر انتفاض جسدي وأنا أنام قربك في الليل، كان جسدي ينتفض خوفاً من الاعتقال، الاعتقال اغتصاب، صدقيني، الاعتقال استباحة سافرة للحرية، حتى لا ينفع معها تدثّري بكل ملابسي المحتشمة!

أحاول ترتيب البطانية على المصطبة، البطانية العسكرية الخشنة مثقلة بروائح مئات ممن سبقوني، تدثروا بها صيفاً وشتاء، أغسل صحني

الذي تناول الطعام منه أصدقائي المعتقلون السابقون الذين تقاسمت معهم ما أعرفه وما لا أعرفه، ربما مر من هنا مَن نقلتُ اسمه إلى قائمة «معتقلي الثورة»، ومن بحثت عن صورته لأرى ابتسامته في ما قبل الاعتقال، كي لا تغيب ابتسامته، ها أنذا أتقاسم معكم عذابات الاعتقال وخشونة العيش، كي أصبح أقوى في مواجهة العزلة!

تتناهى إلي أصوات أقدام تنزل أدراجاً. صرخات. وصلت قافلة أخرى، تقترب الأصوات، أتمدد على الأرض لأرى من خلال الثقوب في أسفل الباب شباناً يدخلون، كلٌّ في زنزانة من زنازين الغياب، أسمع صوت فتى لا يعدو عمره الخامسة عشرة، ينتحب: «أمي وأبي ما بيعرفوا وين أنا هلق.. طالعوني رح أختنق هون.. طالعوني منشان الله!».

«شبك ولاااا؟».

«والله يا سيدي مالي علاقة.. كنت نازل اشتري من الدكان.. شفت المظاهرة ع الرصيف التاني وكنت عم بتفرج.. يا سيدي.. يا سيدي والله مالي متعود ع الحبس.. طالعني الله يخليك!».

«اخرس ولك.. مو متعود؟ بكرا بتتعود».

تبتعد الخطوات، ولا يبقى سوى صوت نحيب الفتى الذي لا يجد في المنفردة ما يرتمي عليه سوى الأرض القاسية!

عندما كنت في عمر هذا الفتى، كنت أتلهف لمشاهدة من أحب، وأكتب الشعر الرومنسي، كم تغيّر الزمن يا فتيان سورية، أنتم الآن تشاهدون وتفعلون أشياء مختلفة تماماً!

لم أعرف كم مضى من الوقت حين سمعت صرخة العنصر في المنفردات: «الصايم يفطر.. الصاااايم يفطر!».

ولكن: كيف سيأكل الصائمون الطعام الذي تمَّ توزيعه ظهراً؟

أسمع أصواتاً تبسمل، وتقرأ الفاتحة، ويتناهى إليّ صوت منشد من

إحدى الزنازين يتلو القرآن، أيها الصوم الكبير، أيها الصبر الجميل، لرمضان في الاعتقال طقوسه البهية أيضاً!

يقشعرّ بدني، أنا الفتاة اللادينية، التي لم تصُم ولم تصلِّ يوماً، أحسّ في هذه اللحظة بحضور الله بيننا، هنا، نوراً في ظلام الزنازين!

أقف وأطلّ من الطاقة المفتوحة، أنظر إلى الممر الضيق، أرى شاباً ممدداً على الأرض يتحدث بصوت خفيض إلى نزيل المنفردة المقابلة، يسأله عن اسمه، معظم المحتجزين هنا هم من منطقة واحدة، قريبة من الفرع، وكثيراً ما يكونون أبناء حارة واحدة، وإن لم يعرف أحدهم الآخر قبلاً، فهنا يملكون الوقت كله للتعارف، وتبادل المعلومات.

على الجانب القريب من أسرّة عناصر الفرع، هنالك من ابتكر طريقة أخرى للتواصل، الشاب الممدد على الأرض راح يرسم على الثقوب كلماته حرفاً حرفاً، وبين الكلمات يضع فاصلاً بمسح يده على الثقوب ليبدأ من جديد كلمة أخرى. الشعب الذي اخترع الأبجدية منذ آلاف الأعوام يبتدع هنا، في هذا القبو، أبجديات ملهمة!

يلمحني أحدهم فيقول لصديقه بلهفة: «فيه بنت بالزنزانة اتمنطعش.. لابسة قميص أحمر!».

أنظر إليه بثبات، قميصي زهري، الظلام يجعل الألوان تختلط عليه، لكنه رأى ما أحب أن يراه: فتاة هادئة تبتسم في وجه الاعتقال!

أتوارى في زنزانتي مبتسمة، وأغني، علّ صوتي الشفيف يحفر عميقاً في أفئدتهم، فيغدون أصلب، خجلاً من أنوثتي، فتاة تغني هنا، وما همّهم من تكون؟!

«بكتب اسمك يا حبيبي.. ع الحور العتيق.. بتكتب اسمي يا حبيبي.. ع رمل الطريق.. وبكرا بتشتي الدني ع القصص المجرحة.. بيبقى اسمك يا حبيبي.. واسمي بينمحى..»!

من القرّبص.. احيك اعترافاتي!

الأحد، اليوم الثالث بعد اعتقالي، أتذكر أني نمت كثيراً، أحاول أن أنسى هذا الشعور بأن الزنزانة تبتلعني، وأترك النوم يبتلع جسدي عوضاً عن ذلك. يستدعيني الرائد وسام: «شو يا.. هنادي؟ ما رح تحكي؟».

«اللي عندي حكيته؟».

«وليك شو مفكّرة حالك إنتي هاااا؟ عيونك هدول بشلّك ياهن وليييبيك!».

يهجم صوبي فلا أجد مكاناً أهرب إليه، أقترب من الجدار الذي خلفي بخطوات متسارعة، وأصطدم بحافة «بساط الريح»!

ألم الارتطام ينقذني من نظراته الوحشية التي يصوّبها نحوي، أمسك بخاصرتي وأقف أكثر قوة. يتراجع إلى وراء مكتبه ويرنّ الجرس: «جيبولي عاصم لشوف..».

يغيب العنصر لثوانٍ ويأتي بعاصم، يداه وراء ظهره، عيناه خائفتان، والرائد يقترب منه ويدور حوله: «قلّها شو كنت عم تقلي الصبح.. قلّها أنه هيّي هيام جميل.. وأنه هيّي اللي عملت صفحة التنسيقية».

عينا عاصم تهربان بعيداً.

«ما بدّك تحكي؟ طيّب.. خدولي عاصم ع الفلقة.. وهلق رح نشوف إذا رح تحكي أو لأ، بس تسمعي صوته..».

يقود العنصر صديقي الصامت الخائف إلى التعذيب، ويمدّ الرائد وسام يده والعصا بها، فأمدّ يدي، دون أن أدرك كيف امتدت، إلى يد الرائد أمسكها بقوة.

«نزّل إيدك عنّه.. رح إحكي.. رح إحكي.. ما في شي بيستاهل ضربة كف على وجه شب بهالبلد!».

ولا يبقى في الغرفة سوى صوت جهاز التبريد الذي يبدو الأثر الأخير للإنسانية في هذه الغرفة.

لا لأنه عاصم، لو أنه كان أي إنسان لم أكن لأتحمّل تعذيبه، ولا أخجل من حقيقتي، الضعيفة التي لا تحتمل، ابنة أمي، وابنة أبي، الطيبان البعيدان اللذان يبكيان غيابي اليوم، فلماذا على أمهات أصدقائي وآبائهم أن يبكوا أيضاً؟

أعرف أن أمي تقضي وقتها تنتظر وصولي عند بابها، وأبي يضع الأوكسجين، إذ تضيق به الأنفاس بانتظاري، أمي كانت تجلب لي الموز في امتحانات البكالوريا، لم تكن تقدر أن تراني خائفة غير قادرة على تناول الطعام، كانت، تريدني قوية، وما تزال.

رأيت الخوف في عيني أبي يوم رآني، ابنة الخامسة عشرة التي أصبحت صبيّة، كان يمشّط شعري بيديه، ووحده من كان يقص أطرافه حذراً، رآني لأول مرة أضع حمرة على شفتي في الخامسة والعشرين، وهربت عيناي منه، خجلت، ووضعت رأسي في الأرض، لكنه عاد وابتسم، ومسح بيده على خدي وقال لي: «اعمليلنا كاسة شاي يا بيّ..».

أشتهي كأس شاي، وسط هذه الغرفة الباردة، أشتهي حنان أمي ولمسة أبي، لكن أنا هنا، ولا أحد يمكنه الوصول إلي، ولا أحد يمكنه مساعدتي، سجل مكالماتي هنا، وما اقترفته يداي في الثورة وقبلها، حتى دقات قلبي تنصّتوا عليها، أنا هنا مدانة حتى دمي، متورّطة في حب هذه البلاد لسنوات، والأدلة صور التقطتها لمظاهرات طيارة، مستندات أودعتها أفكاري

المجنونة، قصصي الساخرة، سؤالي المسكون بالرجاء عن المعتقلين بعد المظاهرة، وخمس نسخ من كتاب حكم البابا «وطن بالفلفل الأحمر»، كتاب خطير مصادر بكل نسخه، أليس غلافه أحمر؟

دماغي يعمل بسرعة رهيبة، عيون الرائد وسام والنقيب طارق تضحك من زهو الانتصار، فأنا سأعترف!

«تفضلي.. هاتي لشوف.. كيف عملتي هالصفحة؟ منين كنتي تجيبي المعلومات؟».

«مابحكي غير قدام رفقاتي!».

«شو يعني.. بدك تعمليلي حالك بطلة على طريقة الماركسيين؟».

«ما رح احكي ولا كلمة غير قدّام رفقاتي.. جيبهن وبحكي كل شي..».

ينظران أحدهما إلى الآخر، النقيب طارق معترض، لكن الرائد وسام مستعد لفعل أي شيء ليسمع اعترافاتي، وهذا ما يزيد من شعوره بأنه سيد الموقف.

«جيبوهن لنشوف..».

ريما وإباء تجتازان الباب وهما بحالة جيدة، ينظران صوبي بحنوّ، عاصم وعمر ورودي يبدو عليهم آثار الإهمال، ربما هو الخوف من القادم يجعلهم لا يهتمون بمنظرهم وينظرون بعيون مترقبة.

أتذكر قصة الفتاة التي تحوك لإخوتها قمصاناً من القرّيص، ليعودوا بشراً بعد أن حوّلتهم الساحرة بجعات، عليّ أنا اليوم أن أحيك قصصاً ألبسها لهم، ليطيروا من جديد، حتى وإن كان الثمن أن أبقى أنا بجعة لبقية عمري.

أروي لهم، قصة نشاطي في محاكم معتقلي الرأي قبل الثورة، وكيف كنت من بين من نزلوا للاعتصامات الداعمة للثورات في تونس ومصر وليبيا، وأنني أردت أن أفعل شيئاً من أجل «الثورة» في سورية، وبدأت

العمل على صفحة التنسيقية مستخدمةً علاقاتي مع أصدقائي للحصول على معلومات عن أماكن خروج المظاهرات، وأسماء المعتقلين والشهداء، مؤكدة أنني لا أعرف ريما أو رودي أو عمر، متكئة في ذلك على أني لم أسجل رقم أي منهم على جهازي.

يقفز رودي:

«مبلا نحنا منعرف بعض.. وملتقيين كذا مرة ببيت ملك.. بس إنتي مو متذكرة!».

تنتابني الرغبة بضربه ليسكت، وأكتفي بنظرة لوم: «أنا مو متذكرتك أبداً».

يتوغل الرائد والنقيب في الأسئلة الموجهة ضدي، وفي ترديد رواية الاندساس والمندسين، مشيرين بذكاء إلى أن لا شيء يبقى خفياً عليهم، هم العين الساهرة، التي لا تنام!

تنظر ريما ساهمة إلى النقيب وتقول مقاطعة: «لو سمحت: قديش الساعة هلق؟».

تنتابني ضحكة عارضة، ضحكة من أعماق قلبي، ويردّ النقيب: «الساعة وحدة ونص».

وأكافأ على اعترافاتي بتناول وجبة الغداء مع ريما وإباء، أودّعهما عائدة إلى منفردتي المظلمة، فقد خرجتا مساء ذلك اليوم، وبقيت وحيدة في تلك العتمة أكثر من ذي قبل، محاطة بأشباح رجال، وجراح نازفة، وشوق لا يندمل لأمي وأبي، وقد اعترفت اليوم بما قد يزيد من المسافة القاتلة بيننا، لكنني لم أندم قطّ، على تحميل نفسي عبء الاعتراف بكل شيء، فصفعة على وجه أي إنسان هي ثمن غالٍ، وغالٍ، وهذا ما ربّياني عليه.

الزنزانة 18 تُنقل إلى المستشفى

يُقرع بابي للذهاب إلى التحقيق مرة أخرى، الألم الذي لم يبارح ظهري منذ أيام نزل إلى قدمي اليمنى ومنعني من المشي، فصرت أجرّ رجلي اليمنى لتلحق بحركة جسدي، أدخل غرفة المحقق، فيُدهش لما آلت إليه حالتي الصحية من تدهور سريع، بعد أسبوعين فقط على اعتقالي.

يسألني عن بضعة تفاصيل حول اعترافاتي، أجيبه بسرعة، يكاد الألم يجعلني أصرخ، الجلوس ليس مطلقاً وضعية مريحة لآلامي، يدوّن بضع كلمات، ويأمر العنصر بأخذي من هذه الغرفة النظيفة المكيّفة إلى زنزانتي المعتمة المظلمة.

يستوقفني بعد بضع خطوات لي:

«رح تروحي بكرا عَ المستشفى، ما رح ننتظر أكتر، بيكفي أنه رفاقك عم يقولوا إنكن مهددين بالموت تحت التعذيب».

يبتسم ساخراً..

إذاً، فرفاقي يكتبون على صفحات «الفيسبوك» أنني ألاقي التعذيب، أجل، إنهم يعرفون بدقة خطورة وضعي هنا، بوصفي فتاة، وصحفية، وذات بنية ضعيفة، ولكن هل يعلمون صلابتي؟

تُرى من أنشأ صفحة الحرية خاصتي على الفيسبوك؟ أعتقد أنه هو،

ربما وصل إليه خبر اعتقالي بعد أيام، لا أحد كان يعلم بوجودي هناك، ووحدهما ريما وإباء نقلتا الخبر، أنا ذهبت لأشرب فنجان قهوة مع رفاقي، فاعتُقلت، لكنني شربت فنجان القهوة على كل حال هنا، في الفرع، لا بل إنني كنت أشربه في كل مرة أذهب فيها للتحقيق، وأبتسم!

هنا يصبح للقهوة، أي نوع قهوة، طعم الرفاهية الحقيقية، بل يغدو للهواء، الهواء العادي ذاته الذي نتنفسه خارجاً في كل لحظة، رائحة الحرية!

في اليوم التالي، وبينما كان الوقت يقارب الظهيرة، يأتي العنصر المسؤول عن توزيع الدواء على المعتقلين لاصطحابي خارج زنزانتي، أنتظر في البهو بين الديوان وغرفة التحقيق، ثلاثة عناصر يحيطون بي، ورابعهم يضع الأصفاد في يدي، يصعدون الدرج، فيما «حسين»، العنصر الأصغر سناً، الذي يبلغ حجمه ضعفي حجمي يقول لي عابساً: «تعي!».

أصعد الدرج مترنحة، قدمي تؤلمني أكثر مع كل درجة أصعدها، ويداي مقيّدتان دون أن أستطيع الاستعانة بهما أثناء صعودي هذا الدرج اللعين! وما إن أخرج إلى الباب الخارجي ويغمرني ضوء الشمس حتى يصرخ بي أحد العناصر: «راسك لتحت.. لتحت!».

أُحشر في المقعد الخلفي بين عنصرين، وعنصران آخران في الأمام، وتنطلق السيارة وأنا أحاول فقط النظر خارجاً.

«ياااااااااااه، يا شام شو اشتقتلك، يا حبيبتي إنتي، ساحة الميسات، السبع بحرات، العدوي، اشتقت لكل سَنْتِي..».

أنا التي تركت اللاذقية تشكو همّها لبحرها، أتيت مرتمية في أحضان الشام شاكية لها بؤسنا هناك في الجبال، فسبقني دمعها، وفي قلبها رأيت كل صور أهلي، رأيت صورهم في المزة 86، وفي الجديدة، وفي المشفى الجامعي، وفي كل وزارات الدولة، وفي القصر الجمهوري الذي يرزح فوق

ظهر الجبل المنهك، مع كل مترٍ إضافي كنت أقطعه على أوتوستراد العدوي كانت صورهم تحفر أعمق في قلبي!

نصل إلى مستشفى الشرطة، المستشفى الأحدث في القطر: «والله مدعومة!». ومثل حراس، شخصيين جداً، يلازمونني، يدخلونني قسم الإسعاف، وأجد نفسي في عيادة الجراحة العصبية أمام الممرضة، وهم يطلبون الطبيب!

أنتشي برائحة الكحول، أكاد أنسى قدمي المعطوبة وأشعر أني أركض في حدائق المستشفى الخضراء المتسعة، وتعيدني برودة الأصفاد وثقلها إلى حقيقة الاعتقال!

أنقّل نظري بين المراجعين، أبحث عن وجوه رفاقي ومحاميّ وأهلي، وجوه غريبة تنظر بخوف إلى يديّ، يديّ فقط، دون أن يلتفت أحد إلى ألم عينيّ!

منظر الأصفاد في يدي يصعق الممرضة، تقول لهم: «أربعتكون جايين منشانها؟».

«إي ما تشوفيها ضعيفة هيك.. هي خطيرة كتير!».

و«خطيرة كمان، مش بس مدعومة»، أحدّث نفسي..

يستنكر الطبيب وقوفي وجلوسهم، يسمحون لي بالجلوس على كرسي أمامه، أبحث في وجه الطبيب عن ملامح أخي نبيل البسيطة المحببة، وملامح أخي أسامة، لأتحدث دون توقف عن آلامي الممتدة من أسفل ظهري إلى ركبتي، ألم مستمر، وأمرّ على طبيب آخر، وغرف التصوير البسيط، والطبقي المحوري، دون أن يسجل أحد اسمي، ويبقى اسمي الرقم 18!

في السجن تنسى اسمك حقاً، تتألم وحدك، وعندما تُنقل إلى المستشفى تجيب الطبيب الذي يجهل من تكون عن أسئلته المقتضبة، دون أن تسمح للدمعة أن تتدحرج، من قلبك!

يكتب الطبيب تقريراً طبياً مفصلاً، يطلب إلى إدارة الفرع من بين ما يطلبه إسفنجة بضغط عال لنومي!

«عم يمزح.. مو؟!».

يعطيني إبرة مسكّن ألم، ويتم اصطحابي على الفور إلى الفرع.

وقبل أن نغادر عيادة الطبيب يقترب «حسين» مني، وينحني قليلاً ليتمكن من إعادة الأصفاد إلى يدي النحيلتين ويهمس قائلاً:

«أنا آسف.. بس هدول بريستيج!».

المفتاح

كان الوقت ليلاً، لم أعد أذكر الساعة بالضبط، أتناول طعام العشاء حينئذ، في ثالث أيام عيد الفطر، وأذهب للنوم، لقد انتهى العيد، ونام الأطفال، وآن لي أن أنام أنا أيضاً، فقد ضاع حلمي بالتأرجح في أراجيح هذا العيد!

أسمع صوت جسد يُجَرّ في الممر، جسد يُركل، أنزل بسرعة، وأتمدد على الأرض لأرى من خلال الثقوب في باب زنزانتي ثلاثة عناصر يجرّون رجلاً ضخم الجثة ما زالت جراحه تنزف من يديه ورأسه، يفتحون باب الزنزانة 12، في الصف المقابل لي، ويحشرونه فيها ويمضون!

يبدو على جسده أنه منهك من مقاومتهم اعتقاله، أرقب زنزانته لكنه لم يطلّ من الثقوب، لم أسمع أناته ولا صراخه، كان مغشياً عليه!

تُرى هل أتوا به من مظاهرة؟ هل أتوا به من فرع آخر؟ ألديه أطفال؟ ماذا سيحصل إن علم أهله؟ وهل يتخلل الاعتقال من التظاهر كل هذا الضرب، هل سيموت هنا؟

ألف سؤال بديهي عصف بعقلي البسيط، لكنها بالطبع أسئلة لا تعني لهؤلاء شيئاً، كما لا تعني لهم دماؤه التي عمّدت طريقه!

ويعلن الصباح بداية شهر هجري جديد، يوم اعتقال آخر، أنظر إلى

الزنزانة 12، الهادئة دوماً. صباح آخر، وصباح ثالث، وجبات طعام توضع للمعتقل، معتقلون يذهبون، وآخرون يُؤتى بهم إلى هذا الجحيم الصغير، دون أن أسمع صوته أو أشعر بحركته، وكدت أستسلم لفكرة موته!

كنت أتحدث إلى المعتقل في الزنزانة 13، زميلي في القضية غفار، أرفع صوتي قليلاً لأحدّثه عن مجرى التحقيق معي، أرى شبحاً يقترب من ثقوب باب الزنزانة 12، أراقبه، أبتسم لبقائه على قيد الحياة، وإبقائي على قيد الأمل! أشير له ملوّحة، ينتبه لي، يرى وجهي من طاقة الزنزانة، يفاجأ بفتاة هنا!

أكتب له فيرى كتابتي بإصبعي حرفاً حرفاً على الثقوب:

«ش.. و... (أمسح بيدي بسرعة على الثقوب لأقول له أن الكلمة انتهت) ا.. س.. م.. ك؟».

«ل.. ؤ.. ي..».

«أ.. ن.. ا...... ه.. ي.. ا.. م..».

«م..ن..... و.. ي.. ن..؟».

«ا.. ل.. ل.. ا.. ذ.. ق.. ي.. ة..».

«ع.. ل.. و.. ي.. ة..؟».

«ا.. ي..».

«ع.. ل.. و.. ي.. ة..؟».

أبتسم، معه حق ألا يصدق، إنها أربعون عاماً من عدم فهم الآخر، وعدم الاستماع إليه، أربعون عاماً من تفخيخ الطرق بين بيوتنا في الحارة الواحدة، ياه، كم نحن غرباء عن بعضنا في هذا الوطن!

يستمر الحديث لساعات، يخبرني أنه أب لطفلة كان قد أنزلها لتلعب بالمراجيح في آخر نهار لعيد الفطر، قبل اعتقاله بساعات، تبتلع الثقوب

المظلمة معظم ابتسامته وهو يشير مستخدماً سبابته اليمنى راسماً شعرها المتموج!

في اليوم التالي كانت طاقة زنزانته مفتوحة!

العنصر الذي يوزع الطعام سأله: «مين فتحلك الطاقة ولاااا؟».

«الشب اللي بيوزع الدوا..».

فانصرف ممتعضاً.

العنصر الذي يوزع الدواء سأله: «مين فتحلك الطاقة ولاااا؟».

«الشب اللي عطاني الأكل..».

انصرف غاضباً.

أُطِل من طاقتي، أصبح بإمكاننا الحديث عبر قراءة حركة الشفاه، كان يبتسم، أشرت له: «كيف فتحتها؟».

أخرج قطعة حديد معقوفة، وقال فخوراً: «طقّجتها بسناني.. مدّيتها ورفعت القفل.. شوي شوي.. وفتحتها».

من سيقف في طريق حريتك يا رفيق زنزانتي؟ أنت تمتلك مفتاح زنزانتك!

وكان مساء أحد أيام الاعتقال، أنا أتحدث مع لؤي بعد مجيئه من جلسة تحقيق، وجسده مزدان ببعض الصفعات والركلات، يوزعون العشاء فيقطعون حديثنا، لا بأس، فنحن جائعان لطول ما تحدثنا!

العشاء حبة بطاطا فاسدة، لا نأكل، رفضنا أن نأكل، جعنا، قلت له وقد تملكني الغضب: «فوت لجوا.. ما بيجيبوها غير النسوان..».

طرقت باب الزنزانة الحديدي بيدي الضعيفة، أتى عنصر مبتسم، متأنق: «شو بدك؟».

«هلق بدي اسألك بس لو سمحت.. العشا اليوم بطاطا بس مو هيك؟».

«ليه عم تسألي؟».

«منشان أعرف شو بدي آكل.. يعني آكلها مشوية واللا مسلوقة واللا شو؟ البطاطا بس منزوعة ونحنا جوعانين..».

«ليش ما جابولكن جبنة؟».

«لأ.. ما جابوا لحدا بالمنفردات...».

«ثواني بس..».

يغيب لربع ساعة تقريباً، أخبر لؤي عن الجبنة، نبتسم للجبنة الموعودة، نطبطب على معداتنا الصارخة أن تصمت.. يعود العنصر رامياً في يدي الصغيرة بثلاثة مثلثات من جبنة «أبو الولد»، ويمضي!

وماذا أقول الآن لـ لؤي؟ «جابولي جبنة إلي أنا بس»؟ لا يرضى لؤي بأن أرمي له مثلث جبنة، يقول لي: «إنتي بنت.. كليهون.. أنا زلمة.. بتحمّل!».

لم يتحمّل طويلاً، يقول لي غاضباً: «فوتي لجوا.. هلق صار دوري أنا!».

يطرق باب زنزانته بقبضته القوية.

«مييييييييين؟».

«أنا..».

«مين أنت؟».

«أنا مواطن..».

«وشو بدك يا مواطن؟».

«جوعان!».

غاب العنصر المبتسم وأتاه بعد دقائق: «تفضل يا مواطن.. منشان تشوف قديش نحنا كريمين.. وهي خبزة.. وحلاوة كمان..».

ينظر لؤي إليّ منتصراً ويقول: «شفتي! سمعتيه؟ أنا مواطن!». وأكل الحلاوة كلها، فتمكنت من التهام مثلثات الجبنة دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير!

يتبدّل على الزنزانة 11، المواجهة لي تماماً، كثير من المعتقلين، وفي أحد المساءات أرى وجه معتقل «جديد» فيها، فتحوا طاقته لأنه كان مريضاً، وكالعادة يسألني لؤي أن أستفسر عن اسم المعتقل الجديد، علّنا نستطيع معرفة بعض المعلومات عما يجري في الخارج.

ويُصعق حين أخبره عن اسم نزيل 11، إنه صديقه وابن حارته: «مازن»!

يخبرني مازن أن هنالك أربعة شهداء.. في ســـ...

«السيدة زينب؟».

«لأ.. ب ســ...

«الصالحية؟».

«لأ.. ب ســ...

ويأخذ السؤال مني ساعة كاملة لأفهم منه أن عدد الشهداء لهذه الجمعة قبل اعتقاله هم أربعة، في سوريـــــــة كلها!

آخذ استراحة قبل أن أتابع حديثي المضني معه، ألوّح بصحني ليتحرك الهواء قليلاً ويخفف من الحر، أعود لأكمل حديثي، ولؤي يضحك شامتاً من معاناتي في الحديث مع مازن..

«قولي لـ لؤي إنه فداء استشهد.. قوّصوا عليه...».

وبسذاجتي أنقل الخبر لـ لؤي: «عم يقلك مازن أنه فداء استشهد...».

يضع يده اليمنى على فمه، يكاد أن يصرخ، تدمع عيناه كطفل: «فداء استشهد؟ فداء رفيقي؟ استشهد؟».

لم أعرف ماذا أقول له، أرجوك لا تبكِ، تباً لهذه الأبواب الحديدية، تباً لكل القيود، إن بكيت أنت من سيضحكني بعد اليوم؟

يدخل إلى زنزانته باكياً، وأذهب أنا إلى النوم، لكن الطرق إلى عوالم الأحلام تبقى مقفلة أمامنا، كما جميع السوريين، رغم ثقتي أننا نمتلك مفاتيحها..

أمي يا ملاكي!

حاولت النوم دون أن تغيب كلمات المحقق عن ذهني: «رح نجيب أهلك ونقلّن: هي بنتكن.. وأكيد ما في أهل بيرضوا تكون بنتُّن هيك!».

لم يكن يشغل بالي مواجهة أهلي، أو التهم الموجهة إلي، تفكيري كله كان منصبّاً في فكرة واحدة: هل سأستطيع رؤية أمي مجدداً؟!

ورغم أني تركت أبي على فراش المرض والمنفسة على وجهه معظم الوقت، فلم أفكر في موته مطلقاً. لطالما كانت أمي محور اهتمامي، الفتاة التي شهدت طفولتها على الجانب السوري من بحيرة طبريا في أوائل الأربعينيات، دون أن تغيب عن بالها حتى اليوم خضرة الشط الفلسطيني للبحيرة، وقت كانت تعيش مع خالتي وزوجها المتطوع في «سلك» الجيش، ما أزال أذكر حديثها عن فستان خاطته لها خالتي، وارتدته عندما أخذتها معها إلى «حفلة النسوان» في السينما في الشام، لحضور فيلم لا تذكر اسمه، تزفّ فيه شادية إلى فريد الأطرش، وقد جلبت النساء معهن مناديلهن المعدّة مسبقاً للبكاء، فيما أنا اليوم لا أستطيع الذهاب إلى السينما حتى ببنطال!

أحبت أمي أبي يوم كانت في الرابعة عشرة من عمرها، يوم كانت في زيارة لبيت جدي في اللاذقية. أبي ذو العيون الملونة والقامة الطويلة المهيبة أوقعها في حبه، رآها فتاة بسيطة وقليلة الكلام، خطبها، ثم تزوجها

وهي في الخامسة عشرة من عمرها، انتقلت للعيش في منزل جدتي الأرملة، وأمضت شهر العسل في زراعة شتول التبغ!

كان ضرب الزوجة اعتيادياً آنذاك، وكان على جسد أمي الأبيض الغضّ أن يتلون مراراً بألوان الطيف، لكن روحها كانت دوماً خضراء، كسنديانة لا يهزها شيء.

أمي التي أنجبت ثمانية شبان وخمس بنات، كنت آخرهن، نزفت طويلاً يوم ولادتي، وحين تمكنت في اليوم التالي من نزع القماش الذي لفّتني به القابلة، وجدت يدي اليمنى موضوعة بشكل ملتو. كانت يدي لا تقوى على الحركة، وضعتني أمي في حضنها وبدأت تفرك يديّ وقدميّ وهي تبكي، ولطالما أحسست بأنها تراقبني في كل خطوة وأنا أكبر!

تضمني أمي حين أعود من سفري البعيد، باحثة عن حبيب أخبئه بين أضلاعي، تستدرجني بتعليقاتها المبطنة ونحن نرتشف القهوة، لتفهم بماذا تفكر ابنتها الصغيرة، في السياسة كما في الزواج!

يأسرني حنانها، حتى إني فكرت مراراً في ترك كل شيء والمكوث معها في القرية، لكنني أدركت أنها لن تحبني خانعة أو خاضعة، حينذاك لن أكون ابنتها، مطلقاً!

لكن أمي لم تمتد مطلقاً استدعاءاتي المتكررة إلى الأفرع الأمنية، قالت لي يوماً: «يا أمي، الدولة هيّي أمنا وأبونا.. حدا بيحكي على أمه وأبوه؟!».

وحينما حاولت سرد فذلكتي المعتادة حول ما لا يعجبني في الأوضاع، قاطعتني بخوفها: «يا بنتي، وحياتك هذول إذا أخدوكي، ما عاد شوفك بثلاث سنين!».

لا تدرك أمي التناقض بين الدولة الأم، و«الأم» التي تخطف أبناءها فقط، لأنهم لا يتفقون مع وجهة نظرها!

لكنها تحبني، وتحب أن تخطفني بحنانها وأكون لها، ولها فقط، بعيداً

عن أوراقي وجهازي المحمول، وأفكاري المخيفة، وترى فيّ سنديانة صغيرة نبتت في أصعب الظروف تحت ظلها، منذ ولادتها حتى صباها، ولا تريد لأحد أن يقتلع هذه السنديانة بعيداً أو أن يخدش أوراقها!

السنديانة، الجذور، الهرب بعيداً، ورأيت نفسي في شاحنة عسكرية، كل شيء حولي بالأبيض والأسود، حولي الكثير من الباذنجان، رأيت أختي وابنتيها، تحمل كيساً ورقياً فيه تفاح أصفر، نادت أمي: «أمي! تطلّعي لفوق.. «ه....» فوق!».

كانت أمي المحنية الظهر، والمصابة بـ«انقراص» في رقبتها تحاول العثور على وجهي، وهي تتطلع حولها، دون جدوى، دارت الأرض بها، سقطت على الأرض، والشاحنة تبتعد بي.

لم أعِ إلا وأنا أقف على طاقة المنفردة أصرخ ويدي تقرع الباب الحديدي الأسود: «بدي شوف أمي يا كلاب!! بدي شوف أمي!!».

نظرت، فشاهدت وجه «لؤي» يطل من الزنزانة رقم 12، وقد أيقظه صراخي وقرع بابي من نومه، قرأت على شفاهه سؤاله: «شبِك؟».

«أمي.. شفت أمي بالمنام». واصلت البكاء، فابتسم وهزَّ رأسه مشيراً إلى أن ما رأيته كابوس، كابوس فقط..

مسحت دموعي بخجل، لا أريد أن يرى المعتقلون دموعي، فلدى كل منهم أمه التي تَبكيه، وتُبكيه، السجن يعيدنا إلى الرحم الأول، مظلم ورطب، لكنه دافئ، نحن كذلك في هذا القبو ننتظر ولادتنا الموعودة.

قال لؤي لي: «لا تفكري بأمك.. فكري بحالك هلق وبس.. أنا أمي وبيي بيكونوا مفكريني هلق بالمشفى من كتر ما أكلت ضرب يوم مسكوني.. شو فيّ أعملن هلق؟ ولا شي.. ما تفكري بشي..».

وضعت طيف أمي ملاكاً على كتفي يحرسني وأحرسه، وابتسمت بانتظار التحقيق، أتابع حديثي مع صديقي: سنديانة لا يهزها أي شيء.

حبيستا قفص صغير

يستدعيني الرائد وسام وعلى وجهه ابتسامة لن أنساها، ويقول لي: «جبنالك ملك.. منشان ما تضوجي لحالك..».

لقد أمضيت خمسين يوماً في الزنزانة الانفرادية، وجدرانها اعتادت على جسدي المحشور فيها، وصارت رحماً دافئاً رغم الظلمة، بل إن ظلمتها باتت تعطي جمالاً للضوء الخافت المنبعث من الممر بين الزنازين، لكنني، طوال الوقت، كنت أتمنى أن تكون «السبحة الفارطة» قد توقفت عند شادي وعاصم ورودي وعمر وغفار، وأن لا تقع ملك، صديقتي الشقراء التي أصبحت أحذيتها مهترئة لكثرة المظاهرات التي مشت وركضت فيها.

أجل ملك هنا! لم أُصدَم، فقد رأيتها من خلال الثقوب في زنزانتي، طلبت أن تدخل إلى الحمام، فرأيتها، رأيت شعرها الأشقر، ورأيتها تلبس فستاناً أسود، كالذاهبة إلى موعد غرامي، وخفت عليها، وكدت أصرخ، ملك ابنتي، وتمنيت في تلك اللحظة أن أضمها، وأخفيها عن عيونهم!

أضرب بذرة زيتون على زنزانة لؤي، أوقظه من نومه: «ملك هون.. جابوا ملك!».

ومن خلال دموعي أراه يسألني: «مين ملك؟».

«رفيقتي.. (أشرت له ملصقة سبابة يدي اليمنى بسبابة اليسرى).. رفيقتي..».

يصمت لؤي، يحاول أن يغيّر الموضوع سائلاً إياي عما إذا كنت قد أكلت ونمت، إن كنت قد شاهدت حلماً مزعجاً عن ملك، وخلته حقيقة، هززت رأسي نافية والدموع تتساقط على خديّ..

لكنني عندما وقفت أمام المحقق كنت متمالكة مشاعري، قلت له: «اشتقتلا.. وينا؟».

«هلق رح نيخدك لعندا.. انصحيها تعترف أحسنلا..».

يعيدونني إلى زنزانتي كي آخذ أغراضي، وما إن أقترب منها حتى أصرخ بصوت عال ناظرة إلى زنزانة لؤي: «أنا رايحة..».

لم أعلم ما إن كان قد سمعني أم لا، وما إن كان فهم أنني لن أخرج إلى الحرية، بل إنهم قد جلبوا بعض حريتي إلى السجن، لأسجن معها: ملك.. أردت أن أذهب إلى طاقة زنزانته وأعانقه، وأعانق جسده المعذّب، وأقول له: شكراً على الابتسامات، والضحكات التي منحتني إياها، وقلت في قلبي: سنلتقي في الخارج يا لؤي، سنلتقي!

يفتح العنصر لي الباب، فأندفع نحو ملك، جسداً وروحاً قوية، أشمّ رائحتها التي اشتقت إليها، فتقول لي: «شلونك ولي زعرة؟ توقعت شوفك أضعف من هيك.. بس لا منيحة.. قويانة!»، أبتسم، مخبئة الدموع على اعتقالها في زاوية قلبي، نجلس معاً على البطانيات المتسخة، وتبدأ ملك في فرد كلامها..

«اعتقلوا يحيى شربجي يا هنادي.. وفيه معلومات أنه بالمشفى هلق.. الجوية اعتقلته.. وقتلوا غياث مطر.. الوحوش.. بعتوه لأهله..».

الصدمة تبدو أكثر قسوة مع كل كلمة تنطقها ملك، صورة يحيى الذي رأيته آخر مرة باسماً، تنسيقية «داريا» التي كانت بالنسبة لي رمزاً للعمل السلمي، أصدقاؤنا الذين اعتُقلوا في التظاهر في دمشق، حمص وغيرها من المدن التي تئن مطعونة من ألف خاصرة!

لطالما خرجنا في مظاهرات مجنونة نصرخ بصوت واحد: «الشعب السوري ما بينذلّ»، «واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد»، «حرية كرامة عدالة اجتماعية»! يرتفع الأدرينالين مدغدغاً مشاعرنا المتقدة، ينظر كل منا إلى أصدقائنا حوله ويبتسم، ويندفع بقلب شجاع، لولاكم يا أصدقاء ما كانت لدي كل هذه الشجاعة!

الرصاص، وجه آخر لخوف الأمن من شجاعتنا، رفضهم لصوتنا، رفضهم لاختلافنا، يحاولون بالضغط على الزناد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء دون جدوى، الرصاص أيضاً، أمر كريه بإطلاق النار عند كثير من المجندين في الجيش الذين يقبع وراءهم «معلّموهم»، رصاص خائف مقابل قلوبنا الشجاعة، هذه هي المعادلة!

وأرى بعينَيّ قلبي الدماء في شوارع دمشق، والموت يتنقل من مكان إلى آخر مسربلاً بالسواد، وعبوات المياه التي كان «يحيى» يحملها ويوزعها على الأمن في «داريا» ملطخة بالدماء!

أُبعد الصور الرهيبة عن مخيلتي وأضم ملك، علَّ دقات قلبها تعلن نهاية الرعب وتقول لقلبي نحن معاً، أنا بجانبك يا أختي! عصفورتان نحن، عصفورتان حبيستا قفص صغير، إن لامستني بكيت، فلست أطيق لها ألا تطير! أنا وملك في السجن، كما كنا في الحرية، لكن هنا يغدو الوقت كله للكلام، والنوم لحلمنا الأوحد بالحرية، الصغرى والكبرى.

وآكل بينما تعلن هي إضراباً مفتوحاً عن الطعام، عصياناً لسلطة لا تعترف بها، سلطة الاعتقال التي تريد التحقيق معها.

في الاعتقال تريد ملك الطيران، فتطلب مني تعليمها أساسيات الرقص الغربي، سلسا، تشاتشا، فالس وتانغو، وتضيف إلى الحركات من أنوثتها كل توقها للحياة والحب!

تتعب، فترتمي منهكة على البطانيات، وتغمض عينيها، وتطلب مني أن

أحكي لها فيلماً، وأطلق العنان لذاكرتي، راسمة لها كل اللوحات، ومنتقية الألوان والابتسامات بعناية!

يستدعيني الرائد مطمئناً على صحتها، يا لك من قوية يا ملك، إنهم يريدون اعترافاتها بأي ثمن، يمضون معها ساعات في نقاش سياسي وميداني، يعلمون أنها كانت دينمو التنسيقية، وأنها الفتاة الرقيقة التي لا تكسر!

أنظر إليها وهي لا تجوع، تدخل باستحياء أمامي إلى الحمام. في السجن لا خصوصية لجسدك، فالأولوية للبقاء على قيد الحياة، أحاول إقناعها بأن تأكل، لكنها تصوم وتنام، فأحنّ إلى أحاديث الزنازين الانفرادية مع لؤي، حيث يمكننا مع كل سجين يأتي أن نعرف أخبار الخارج، وما اسم هذه الجمعة، وكم شهيداً، بل كم وردة مزّقت في شوارعها! أشتاق إلى ضرب بابه الحديدي ببذور الزيتون، أشتاق إلى ابتسامته، ولهفته على رفاقه في الزنازين، كلما أخرجوا أحدهم للتحقيق، وكلما أعادوه مدمى.

يقرع الباب المحقق أبو حمزة مقاطعاً حنيني، يبتسم وهو يقدّم سندويشة جبنة إلى ملك.

ملك الجميلة، القوية، تضعف أمام ابتسامة أبي حمزة، تأكل، ويبدأ التحقيق معها، بإرادتها، تقول لهم ما استنتجت أنهم يعرفونه، وتحكي لهم عن تنظيم وقفة عرنوس، ومظاهرة مدحت باشا النسائية، والشملان، وأنها تظاهرت هنا، وهناك..

تحمل ملك الأوزار جميعاً عن إخوتها في التنسيقية، تحاول أن تخفف قدر المستطاع، أنظر إليها بإعجاب، ونختلف في ذوقها الموسيقي، واختيار الأفلام، والملابس، وكثير من تفاصيل الحياة اليومية..

لكنني أعلم أن نساء مثلها هنّ من ينسجن ملابس بيضاء لأطفالي في الغد..

وأتوسد ذراعها، وأنام..

•

ورغم أن غرفتنا كانت صغيرة، إلا أن الغرفة المجاورة التي تصلنا منها أصوات رفاقنا المعتقلين الشبان، والتي تضم ما يزيد على خمسة عشر معتقلاً، هي بالحجم ذاته، والعنصر يأتينا أنا وملك بالكمية ذاتها من الطعام!

تسرّح ملك شعرها بأصابعها، لا مشط هنا ولا مرآة، عيناي مرآتها فقط، وعيناها الشيء الوحيد الذي يبث في قلبي القوة، فأنا لا أريد أن أبدو ضعيفة فيهما.

يناديني الرائد وسام، وبدم بارد يقول لي: «رح تتحولوعَ المحكمة..».

أسأله عن مصيرنا الذي رتبوه لنا هناك، حيث القضاء العادل والمستقل، فيردّ: «ما حدا بيعرف.. فينا نقلّن يتشددو ممكن، بس نحنا هالمرة ما رح نتدخل..».

«يعني ممكن تعطونا حكم سنة.. سنة ونص مثلاً؟».

«لاااا.. لاااا.. ما عاد فيه هيك أحكام.. هي أحكام محكمة أمن الدولة بوقت قانون الطوارىء.. هلق ما عاد فيه هيك شي.. حتى يمكن القاضي يكتفي بالشهرين اللي قضيتوهين عنا ويخلي سبيلكين..».

أهز برأسي وقد بدأ اليأس يثقله.

أتذكر آلام لؤي الذي تركته في المنفردات، ودون تردد أساله عنه، فيجيبني إن أسرته قد زارته، وقد جلبوا له الدواء. أشرد ساهمة، أرغب حقاً في أن يكون قد حصل له شيء جيد، أن يكون رأى أمه، أو أخته، أو ابنته، وحصل على جرعة حنان وإن صغيرة، وبين ساعديه القويين الداميين، ووجهه الجميل، أرغب لو تستطيع قدماي حملي للركض إلى حيث زنزانته، وفتح بابها بسرعة وإخراجه إلى الضوء ليغمره، وأتأكد من كل تفاصيل ابتسامته، وأن أضمه لأشعر بدقات قلبه الذي تضيق به الزنزانة كل لحظة، وأتمنى لو أنني من أسرته، كنت زرته معهم!

وأعود يائسة إلى جماعيتنا، لأمضي آخر يومين مع ملك.

نستلقي على البطانيات النتنة المفروشة على الأرض، نشتمّ رائحة البصل المنبعثة من طاقة الغرفة، المطلة على مطبخ العناصر مباشرة، فوق الغاز، نصرخ في وقت واحد: «عم يقلّوها للشوربة!»، ونضحك لأول مرة من رائحة البصل!

حتى البصل يصبح حلماً، نسترجع معاً طعم اللبنة مع الملح والزيت، سلطة الذرة التي كانت تحضرها لي مساء، مع الكولا، صوت فتح علبة الكولا، فورانها، مرورها على البلعوم وهي تحرقه! يـااااااااه، كم تتفتح الرغبات في الحرمان!

في الصباح يدق الباب العنصر الذي يوزع الدواء: «عملنالكين أبريق شاي.. عندكين كاسات لحتى نصبّلكين؟».

نتطلع حولنا فلا نرى سوى علب العصير من ماركة «فراغولين» الشهيرة هنا في الفرع، نحضر علبتين فارغتين بسرعة فيسكب لنا الشاي فيهما، العلبتان البلاستيكيتان تضمران وتضمران مع انسياب الشاي فيهما، لكن فرحتينا بهما تكبران وتكبران!

ويكبر قلبانا وهو يخبرنا أن باستطاعتنا شربهما خارجاً، خارجاً أي

في الفسحة الصغيرة المسيّجة بالقضبان، حيث يمكننا رؤية السماء، من البعيد. أخيراً!

إنها تمطر، لقد اعتُقلت في آب، وها هو ذا الشتاء يأتي، وأنا هنا! منذ زمن بعيد وأنا هنا. منذ زمن بعيد لم نشرب الشاي مع اللبنة بالزيت يا ملك! يا له من يوم رائع!

يسأل العنصر: «بكرا إذا شفتونا بالشارع.. رح تقلولنا مرحبا؟ رح تسلّمو علينا؟».

أرد بسرعة: «أكيد!».

وترد ملك: «ما بعرف.. إذا كنت بمظاهرة وشفتك ما رح سلّم عليك.. اعذرني!».

«ليش بعد كل المعاملة المنيحة اللي عاملناكين ياها.. لسه بدك تطلعي مظاهرات؟؟؟».

تبتسم ملك، وأصمت أنا ذاهلة!

«بتعرفي قدّيش صرلي ما شفت أولادي بسبب مظاهراتكين؟ ست شهور.. عندي أرض تيركها بالضيعة بلا سقايي.. كله بسبب مظاهراتكين! نحنا ما منفرق عنكين بشي.. نحنا محبوسين هون متلكين.. بس الفرق أنه نحنا منيكل برا.. وانتو جوّا..».

أود لو أقول له: «بتعرف إنت إني تركت بيي وكمامة الأوكسجين عَ أنفه، وما شفته من شهرين؟ بتعرف إنه ممكن يموت قهر وهوي ما بيعرف شو عم يصير مع بنته بفرع أمن؟ بتعرف إنه أنا وأنت وولادك وهالأرض ملتمن نفسنا.. هادا كله كرمال كرسي؟ كرمال واحد مجنون مخبول بكرسي؟».

ولكني أصمت، وفي أذني أصوات أقدام معتقلين جدد ينزلون درج القبو المظلم، ويدخلونني أنا وملك بسرعة إلى معتقلنا، كي لا نراهم ولا نحسّ كم نحن كثر هنا، وكم هم خائفون!

ملك تقضي وقتها بالنوم حالمة، أطلب مقابلة الرائد من جديد: «بدّي اقرا...».

«منين بدنا نجبلك كتب هلق؟».

«ما تجيبولي.. إنتو صادرتو من بيتي خمس نسخ من كتاب حكم البابا «وطن بالفلفل الأحمر».. اعطوني نسخة وخلّوا الباقي عندكن...».

«هادا الكتاب الشيوعي اللي غلافه أحمر؟ لا.. ما منقدر.. النسخ كلها مصادرة...».

أعود لحراسة أحلام ملك!

أنتظر يوم الجمعة، كان الوقت صباحاً، أغسل ملابسي وأرتدي البيجامة التي أحضروها لملك، أنشر بنطالي وبلوزتي الزهرية على الشوفاج الصدئ، تنتهي الجلبة القادمة من الجماعيات، ثم من المنفردات، ها قد أتى دورنا بالحمّام!

يخبط المنصر على الباب: «مين بدا تتحمم بالأول؟».

أتقدم أمامه، فيستدير ويمشي ورائي، رأسي مطأطئ، أجتاز الممر الموصل بين صفي المنفردات إلى الحمام، أنظر بطرف عيني إلى باب المنفردة 12، وأقول وأنا أمضي مسرعة مبتهلة ألا يكون لؤي قد غفى بعد حمّامه السريع الذي لا يتجاوز ثلاثين ثانية: «ياللّه!».

هل سمع صوتي؟ هل عرفه؟ هل عرف أني لم أخرج وأني ما زلت هنا قربه؟

الماء الساخن يغسلني، يغسل القلب قبل الجسد، يدفىء الروح تحت الجلد، يزيل الغشاوة عن عيوننا، أخرج من الحمام مبللة وباكية، الممر يبدو حزيناً، لا صوت لؤي يؤنسه ولا سعاله، أنظر إلى ملك وهم يأخذونها، أخال أنهم يأخذونها إلى التعذيب!

يجلب المنصر لنا صابونتين جديدتين، آخذ صابونة وأحفر على

زواياها بقطعة حديد صغيرة أسماءنا: «عاصم، شادي، غفار، هنادي»، وفي القلب حفرت: «ملك»!

قاطعت ملك بكائي: «ليش عم تبكي يا زعرة؟».

«ما بدي إتركك هون..».

«بس إنتي طالعة.. لازم تفرحي.. كملتي شهرين ورح تطلعي وتعملي كل شي بدك ياه..».

«لا ملك.. قلبي حاسسني أنه رح يحوّلونا على عدرا..». •

«يلعن ديبك إنتي وتشاؤمك.. أففف...».

تضمّني، أضمها، ابنتي هي، ابنة قلبي، كيف سأتركها هنا وحدها، فتاة بين عشرات عناصر الأمن، كيف ستستحم هنا وتذهب وتجيء إلى التحقيق ولا فتاة سواها هنا؟ كيف سأتركها وحولها عشرات الصراصير وهي تخاف أصغرهم؟

وبين عدرا، ورؤية طلّ الملوحي، الفتاة التي لطالما سمعت عنها، وبين الحرية، كانت الساعات تؤرجحني بعنف بين السعادة والألم.

أنظر إلى ملك الراقدة قبالتي، باسمة، ويدها على الصابونة العطرة بجانب رأسها، ولا تفيد ابتسامتها، والعطر الجميل النادر، في منعي من البكاء!

في القصر

منذ أمس ونحن نسمع صوت رودي في الجماعية الأخرى يطالب برؤية الضابط، ويقول لهم: «هي كمّلنا ستين يوم، صار لازم نطلع!».

واليوم فقط أجابه المساعد عمار رئيس الديوان: «اليوم إي!».

يخرجوننا أنا وملك عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، نلمح شادي يجلس إلى طاولة ويملي آخر أسطر في إفادته. نجلس في غرفة الرائد وسام، النقيب طارق أيضاً هنا، الجميع يبتسم رغم حراجة الموقف، لكنهم كذلك، سجانون سعداء بمغادرة معتقلي رأي بعد شهرين من الاعتقال!

ألمس في ابتسامتهم تضامنهم السري مع حريتنا، اعتذاراً غير معلن عن احتجازنا هنا، وأبتسم لهم من كل قلبي، فأنا أيضاً أسرّ تضامني الكامل معهم، فهم ليسوا سوى أدوات للسفاح في احتجازنا وتعذيبنا، هم أيضاً محرومون من رؤية أحبائهم، وقد يموتون هنا بعيدين عنهم. أبتسم لهم، مصلّية في قلبي أن ينتهي كل ذلك بسرعة!

يُدخلون شادي ليسلّم علينا، غفار لا يعلم أن شادي هنا، وأنهم أتوا به من سجن عدرا، بعد تحويله إلى هناك، إثر اعتقاله لشهرين كاملين أيضاً في فرع آخر، لحى الشباب طويلة وشعثاء، وشعرهم كذلك، حتى لكأنهم خارجون من الكهوف، ورغم كل ذلك الوقت تبدو «بلوزة» عاصم وكأنها غُسلت وكُويت الآن.

يقول له النقيب طارق: «صاير بتشبه مارسيل خليفة يا عاصم..شايف الحبس شو بيفيد!».

كنت سعيدة برؤيتهم، حتى لو كانت اللحظة التالية ستحمل قدراً أسوأ، فأنا أرى انتصار دمشق في تلك الابتسامة بعد كل هذا الانتظار الطويل: «هكذا سيخرج كل معتقلينا، هل ترى ابتسامتهم أيها الرائد وسام؟».

أتطلع إلى ملك التي جلست بجانب عاصم وهما يتبادلان الحديث همساً، مشاغبة، والرائد يتنحنح مستعداً لإلقاء آخر محاضرة قبل أن نذهب إلى المحكمة، ويكمل: «شو رأيك يا شادي تعمل حزب؟ هي كوادر حزبك كلّن جاهزين!». يحاول أن يرى ما إن كان الاعتقال قد غيّرنا، إن كنا قد أصبحنا أكثر ليونة، يحاول يميناً، شمالاً.

لهفتنا للخروج تجعلنا لا نجادل كثيراً، نريد أن نخرج، أن نرى دمشق، أن نطير!

يأخذون ملك، أضمها وأقبّل خديها، أرنو إليها تعود إلى غرفتنا البائسة وحيدة، يقتادها عنصران، هناك تنتظرها الصابونة التي حفرت أسماءنا عليها، واسمها في القلب، يا سجن كن برداً وسلاماً على قلب ملك!

لا مكان الآن للحزن يا قلب، سأرى الشام، وستراها ملك بعد أيام!

يضعوننا في زاوية في «صالون الاستقبال» أمام الديوان، نتهامس أمام أعين عناصر الأمن، نتشاور فيما سنقوله أمام القاضي ويقول شادي مطمئناً: «يعني شو رح يصير؟ خلص.. نحنا أبطال.. بيوقفنا شهر.. شهرين.. تلات شهور ومنطلع.. بففف..».

يدخلونني لاستلام أغراضي من الديوان: الحلويات التي اشتريتها منذ شهرين هدية لأمي في أول أيام رمضان، حقيبة يدي، وفيها أشيائي الخاصة، و.. باكيت الاحتياط الدائم في حقيبتي، باكيت جيتان كان مغلقاً وسلّموني إياه مفتوحاً، وعليه وقعت!

أطير به إلى رفاقي، يصعدون بنا إلى الباص وهناك يسمحون للشباب بالتدخين!

كل اثنين يدخنان سيجارة! ثمينة جداً سيجارة التبغ بعد شهرين من الحرمان، والتحقيق والتعذيب والصراخ، دخان يتراقص فرحاً في باص يتأرجح بأحلامنا، وتشرق من نوافذه شمس دمشق في الثالث من تشرين الأول، وتتراقص سحابات صغيرة منبعثة من سجائرنا، وعيوننا تقبّل ساحة الميسات، والسبع بحرات، والحميدية!

أهمس لعاصم الذي يجلس أمامي وقلبي يرتجف: «خايفة من أهلي.. ما بعرف شو ردة فعلن.. أكيد رح يعرفوا أني هون..».

«ما تخافي.. (بتقطيبة جبين) كلنا حدّك هون...».

يستلمنا القصر العدلي، الشباب يقفون جانباً، بينما يمضي بي الشرطي إلى غرفة انتظار النساء وسط مئات من المعتقلين الرجال والشبان والأطفال!

«يارب، كل هدول معتقلين؟!».

تفتشني الشرطية ببطء وتسألني عن تهمتي، أخبرها: «تظاهر»، تنظر إلي بحقد وتأخذ من حقيبة يدي العطر والدواء، وتدفع بي إلى داخل النظارة وسط الموقوفات بتهم جنائية وجنح!

أجلس متعبة، أغسل وجهي على المغسلة، أكاد لا أعرف نفسي: حاجبان كثيفان ووجه أصفر وعينان متعبتان! حتى ألوان ملابسي اختلطت بعد ستين يوماً من الغسيل وارتدائها مبتلة على جسدي النحيل الخائف من تحقيق مباغت.

صوت حنون اندفع ليروي قلبي، إنها سيرين خوري، المحامية التي تعرفت إليها يوماً في نقليات «زريق»، حين كانت ذاهبة لتبارك لموكلها فراس سعد حريته.

بشعرها المتموج الأسود، وضحكتها العنيدة، قبّلتني من وراء القضبان الباردة، طار قلبي وغرّد: «رح تطلعي يا هنادي.. رح تطلعي.. متل ما أنا طلعت!».

لم تسمح الشرطية بعناقنا، أنهت المقابلة التي لم تتجاوز ثلاث دقائق، دافئة.

أتمالك نفسي وأنا أحس بأيدٍ تسند ظهري المتعب، ووجه ميشال شماس وخليل معتوق، صديقيّ، أمامي، يقول خليل: «يمكن اليوم ما تلحقوا القاضي.. راحت لبكرا بظن..».

أنا الآن هنا، معتقلة، وهؤلاء هم محاميّ بعد معتقلي الثمانينيات، والتسعينيات، ومعتقلي «إعلان دمشق»، ومشعل التمو، وفائق المير، وكمال شيخو، و...

القائمة لا تنتهي، وقصر العدل ليس سوى قصر الاعتقال، وأنا الآن وراء قضبانه.

يضع الشرطي الأغلال في يدي ويقودني مع أخريات إلى باص سينقلنا إلى نظارة كفرسوسة، للغد. أتطلع يميناً وشمالاً قبل أن أصعد إلى الباص، أرى من بعيد، على باب القصر العدلي، سيرين مع رفاقي، أصعد إلى الباص، ألوّح لأصدقائي بإشارة النصر والباص يمر من باب القصر، ألمح هبة العقاد وأوس المبارك، ويقول لي تمّام، صديقنا الصغير، الطالب العشريني الذي لم ألتقه سوى مرتين: «هنادي.. كيفك يا عمري؟ ديري بالك على حالك.. نحنا منحبك كتير».

«وأنا كمان بحبكون.. ديروا بالكن على حالكن..»!

الباص يبتعد، ويبتعد عن وجوههم الغالية، أنا أرسم إشارة النصر وقلب حبي لهم، والشرطية تصرخ بحقد من المقعد الأمامي: «إي.. ارفعيلن ارفعيلن: الشهادة أو النصر..»!

وتتمتم دون أن أسمعها، فأصوات أصدقائي تملأ عليّ الكون..

في كفرسوسة تفتشنا امرأة بحثاً عن سيجارة هنا أو هناك، يتركونني مع المتسولات والنشالات، وندخل نحن السوريات إلى غرفة تجلس فيها نحو سبعين فتاة من المستخدمات المستقدمات من أندونيسيا والفيليبين وأريتريا والمغرب، و...

مناشر الغسيل على الحيطان، الأرض مفروشة بالأجساد، الفتيات منشغلات بتسريح شعورهن وتعديل مكياجهن، لا مكان لأضع قدمي، أجلس وأنا أضم ركبتي، وأعرف أنه عليّ دفع خمسمئة ليرة لكي أنام في غرفة أخرى مع ثلاث فتيات أخريات، يتم تأجيرها لليلة واحدة من قبل الشرطي المسؤول عن النظارة!

هنا خادمات سافر مستخدموهنّ وتركوهن دون جوازات سفر، منهن من ألقت الشرطة القبض عليهن، ومن سلّمن أنفسهن للشرطة، منهنّ قاصرات دون الثامنة عشرة، بعضهنّ حوامل، قبل اعتقالهنّ أو بعده، لا يهمّ، ما يهمّهنّ كسب رزقهن، بعضهن طلبن مني نقوداً ليشترين طعاماً أو ملابس، فهنّ يشترين الملابس من القادمات إلى هنا، أو المغادرات، بعضهنّ عرضن تصفيف شعري مقابل بضع عشرات من الليرات، وبقيت صامتة. وما إن وضعت يدي على ظهري، حتى تقدمت مني صبية صغيرة لم يتجاوز عمرها الخامسة عشرة، حدثتني بالإنكليزية، وطلبت مني أن أتمدد كي تدلّك ظهري، أمها، التي أسدتها نصائح من أجل هذا التدليك العلاجي، أخبرتني كيف حاول مالك المنزل الاعتداء على ابنتها في قصره في اللاذقية، فهربتا وسلّمتا نفسيهما للشرطة كي تقوم بترحيلهما!

أجلس قربهما، أتناول سندويشة، دفعت ثمنها مئة ليرة، أعاند وجع رأسي، وأنام.

أصحو بعد منتصف الليل، صوت الشرطي المناوب هنا يتبادل

الأحاديث مع إحدى الفتيات في الممر، ضحكات! ترى من يعرف ما يجري في هذا القبو المظلم؟

في الصبح نُسيَّر إلى القصر العدلي من جديد، انتظار آخر، سيرين تراني وتبتسم لي، لكن ظهري يؤلمني! أقول لخليل أن يأتيني بمسكن ألم، ويجيبني مبتسماً وهو يغالب مرضه: «لبكرا..».

وكان الغد، الخامس من تشرين الأول لعام 2011، كلّ انتظاري بسلسلة تم تقييدي إليها مع أبناء دعوتي: عاصم وعمر ورودي وغفار وشادي، وكان عليّ أن أسرع في المشي كي لا أقع أرضاً وأنا في آخر السلسلة، وبقي قلبي خائفاً من وجه أعرفه هنا أو هناك.

يطمئنني خليل همساً: «فيه شباب برا من الميدان.. ما تخافي». ويعطيني بإذن من القاضي حبتي مسكن ألم.

أجلس أنا والشباب على مقعد طويل واحد يكاد لا يتسع لنا جميعاً، ينظر المحامون إلي مبتسمين، فائق حويجة وأنور البني وآخرون، كمال شيخو هنا أيضاً، ولا أعرف إن كنت أستطيع ان أبتسم لهم.

تقول سيرين وهي ترى عيني الحزينتين: «بشنتايتي فيه جاكيت سودا وحجاب ونظارات كبيرة سودا.. رح نطالعك من الباب الخلفي.. فيه سيارة ناطرتك هنيك..».

وأدخل إلى الاستجواب.

القاضي أحمد السيد، قاضي التحقيق الأول بدمشق يطرح عليّ أسئلة من إفادتي، ويسجل أن ما قلته هناك كان تحت الضغط، وينتظر مني أن أضيف شيئاً.

«نحنا سلميين.. وما بدنا سلاح.. وما بدنا سوري ينجرح.. طلعنا لنقول لأ للغلط.. ورح نضل سلميين.. وبايدينا وبايدين كل السوريين.. بدنا نوصل للدولة الديمقراطية اللي بدنا ياها..».

تطلب سيرين منه أن يخلي سبيلي وأن يتم اخراجي من الباب الخلفي، متذرعة بأن هنالك خلافاً مع أهلي بسبب علاقة مع شاب من خارج الطائفة، وتطلب الحفاظ على سلامتي.

ويقاطعها القاضي مبتسماً: «لا يا أستاذة.. لا ما رح أخلي سبيلها.. أنا منشان سلامتها الشخصية رح وقّفها!».

لم أنتبه لميشال وهو يسلّم عليّ، ويوصي الشرطي بالاهتمام بسلامتي على الدرج، توقعت توقيفي، لكنني ما أحببت أن يُصفق بوجهي باب الحرية بعد أن رأيته يفتح لثوانٍ ومن ورائه شمس الشام! لا أريد أن أذهب إلى السجن، أريد أن أعود طفلة بين يديّ أمي وأبي، أريد الحرية، لا أريد الاعتقال!

يخرجني الشرطي عندما ينتهي الدوام، يكبّل يدي، منهكة ويائسة، رغم أن قلبي بقي يدق بقوة، أشاهده يوقف الموقوفين الأطفال، المكبّلين بالسلاسل، يوقفهم جانباً، وأصعد أمامه الدرج الموصل إلى الباب، على وجه الأرض، أشاهد امرأة عند الباب، شقراء عجوز، تضع الكثير من أحمر الشفاه، حولها شرطيان تتحدث إليهما. لم أهتم في البداية، رغم علمي بأنه يمنع على المدنيين الوقوف هنا.

أمرّ بجانبها، وأتجاوزها، يقول لها شرطي: «هي هيي.. هي هيي..».

تشد شعري من الخلف، تصرخ وهي تضربني بيديها: «معارضة يا كلبة.. معارضة يا... لك صباط بشار الأسد بعيلتك كلها...».

أصرخ من فرط الألم، أصرخ ليسمعني محاميّ وأصدقائي في الخارج، عند باب القصر العدلي، لا أريد أن أضربها، أو أمسك يدها، أريد فقط أن تكون لدي القدرة على الصراخ بصوت أعلى، ألا يموت صوتي اختناقاً بين عشرين شرطياً يتفرجون عليّ أتخبط كحمامة جريحة، تمر بذهني كل بيانات ونداءات الأمنستي، والهيومن رايتس ووتش، ومراسلون بلا حدود، جميعها صراخ من فرط الوجع، صراخ وفقط، والعالم يتفرج.

وبعد دقائق خلتها دهراً، يبعدها برفق شرطي، ويضعني في الباص المتجه صوب سجن عدرا للنساء، ألوّح بإشارة النصر للواقفين على باب قصر «العدل» بانتظار رؤيتي قوية، ولست أعبأ ما إن كان شعري مبعثراً أم لا، وإن كان وجهي مجرّحاً أم لا، وأرسم لهم باصبعي إشارة النصر، بينما يندفع صوتٌ جنوني من مذياع الباص: «يا بشار.. متلك مين؟..».

أبتسم لرفاقي بثقة وأمضي إلى سجني..

«عكيد القاووش»

في غمرة آلام رأسي أصل إلى سجن عدرا، أسوار وراء أسوار، يستلمني شرطي ينادونه «أبو نغم»، ويأخذني إلى مكتب مدير السجن. وراء الكرسي، في ذلك المكتب الذي تفوح منه رائحة الأضابير، يجلس شرطي بملابس مدنية، ناداه أبو نغم: «أبو تيمور»، وهما متشابهان إلى درجة اختلط الأمر عليّ، فخلتهما توأمين!

ما زلت أفكر بكلام الشرطي الذي خلّصني من بين يدي تلك المرأة الفاجرة التي ضربتني أمام القصر العدلي على رأسي، لم يقل لي اسمه، يجلس بجانبي مبتسماً بعد أن غادر باص السجن حدود دمشق، ويقول، وصوت علي الديك بأغنية «يا بشار متلك مين»، يقف حائلاً دون مسامع السائق:

«أنا آسف يا أختي.. نحنا مو طالع بإيدنا شي.. اللي عملته هالمخلوقة غلط.. بس إنتي طوّلي بالك.. وما تلومينا.. والله نحنا قلبنا معكون بس شو فينا نعمل؟!».

أحاول أن أجعله يخرج من سلبيته تلك، أن ينفعل ويتحدث بوضوح أكثر، القلب يشتاق إلى كلمة مؤازرة، إلى نظرة مشجّعة وسط سيل التعب، وهو مقيّد مقتاد إلى السجن!

يباغتني «أبو تيمور» بصراخه، وقد فاجأه ملقي القضائي الذي وقع بين

يديه: «تظاهر؟ ونيل من هيبة الدولة؟ وليك شو عاملة إنتي ها!؟ شو بدكن إنتو؟ مو عيجبكن وضع البلد؟».

«لأ!».

ترنّ الـ «لأ» كصفعة في وجهه، ويقوم غاضباً ليقتادني عبر ممر ضيق يقع قفص الزيارة على يمينه، بقضبانه الرفيعة المتشابكة بقوة، وأسأل نفسي: «يا ترى مين رح يزورني هون.. انشالله ما يزورني حدا.. إذا ما زارني حدا رح إنسى وجعي وظل قويّة.. ما بدّي شوف وجوه إخواتي.. ولا وجه أمي.. أكيد بيي ما رح يقدر يجي.. ما رح يقدر يحمل الأوكسجين معه لهون!».

نصعد درجاً، يضغط «أبو تيمور» على زر جرس، فتأتي امرأة متشحة بالسواد، على وجهها ابتسامة دائمة، تفتش حقيبة يدي والأغراض التي أعادوها إلي في ديوان المحكمة، تفتش ملابسي، تحاول أن تكون طيبة، لكن تفتيش الملابس، هو تفتيش الملابس!

تأخذ «الممنوعات» التي وجدتها، حمرة خدود، وقلم كحل أسود، وتقول لي: «أنا اسمي الـ «لا لا».. ما تخافي يا بنتي.. هدول الغراض رح يضلوا بالأمانات باسمك.. وانشالله بكرا بس تطلعي بعطيكي ياهن من عيوني..».

وأفكّر: «بس إطلع رح إتركلك كل شي.. رح أركض ركض لبرّا..».

غرفة الإيداع، هذا هو اسم تلك الغرفة في آخر الممر، يساراً، تقفل «ميس»، مشرفة جناح «القتل»، الباب ورائي وتذهب. في الغرفة فتيات ينمن على ثلاثة أسرّة من حديد، عليها فرشات إسفنج مهترئة، ورغم فداحة الموقف أجد نفسي أقرب إلى الضحك، فبعد سبعة أعوام من النشاط النسوي، وخمسة أعوام من النشاط في مجال حقوق الإنسان مع أسماء كبيرة، وبعد النشر في مناشير سياسية معارضة، وفي كثير من الصحف العربية والمواقع العالمية، وبعد الكثير من الخطط للإيقاع بنظام مافيوي

كلّلت بزلزلته، أجد نفسي نزيلة غرفة واحدة مع العشرات من النساء اللواتي لم يفكرن في حياتهن بأبعد من الإيقاع برجل أو سرقة أمواله!

الحيطان بيضاء، الدهان جديد، لكن القضبان تلقي على المكان مسحة سوداوية تظلّل على القلوب قبل العيون!

جلست على الأرض المفروشة بالبطانيات، في زاوية الغرفة البعيدة، الفتيات والنساء رمقنني بنظرات فضولية، واقتربت الأكثر فضولاً منهن تسألنني عن تهمتي: «دعارة؟ سرقة؟ شيك بلا رصيد؟ قتل؟».

«تظاهر..».

تجفل النساء ويبتعدن عني مستغربات، ومستنكرات.. لم يسمعن بعد أن هنالك ثورة في الخارج، وأن العشرات من النساء يُعتقلن، ويعذّبن خلف القضبان، وأن النساء معنيّات بدعم هذه الثورة، وطبخ قوتها، وتغذيتها، وكتابة يومياتها، وتضميد جراحها!

ثلاث نساء بقين بعيدات، أعرف فيما بعد أنهن أخوات من إحدى العائلات في دوما، وأنهن ضحايا عملية احتيال شاركن فيها رغماً عنهن، حاولت أن أعرف منهن أخبار دوما، لكنهن يفضّلن أن يبقين حذرات معي وقد علمن أنني «أتظاهر»، وهي تهمة خطيرة، تهون أمامها تهمة «القتل»!

في آخر الغرفة باب المطبخ، الذي يضم أيضاً حمّاماً، فيه دوش سقفه مفتوح، بجواره «دورتا مياه»، أغسل وجهي وأعود، فمشرفة الجناح ستأتي وتقف على بابنا ذي اللون الأصفر، وتمد رأسها لترانا من بين القضبان، وتسجّل في قائمة طويلة ما تحتاجه كل فتاة هنا: «جبنة، مرتديلا، شيبس..»، أطلب دفتراً وقلماً، وعلبة «بيبسي».

أسجّل رقم هاتف «فرح» أخت لؤي، منذ رسمه بإصبعه رقماً رقماً، بقيت أردده بخوف ولهفة كل يوم كي لا أنساه، وكنت أبتسم فخورة وأنا أرسمه بإصبعي عبر الثقوب وعلى هواء الطاقة، لأؤكد له أني لم أنسه، وأني

أحفظه غيباً، لا أريد لهذا الخيط بيني وبينه أن ينقطع، أريد أن أتصل بها وأسألها عنه، وربما يجيب هو وأسمع صوته بعد أن أطلب الرقم: «اتنين.. سبعة.. سبعة... هلق ما عاد يهمني انسى الرقم.. رح خبي الورقة!.. وأشرب البيبسي كمكافأة لي».

إنها فرحتي الأولى بعد زمن.

أسمع جرساً يرنّ، فتنتهي الضجة النسوية التي يصنعنها بضحكاتهن الهستيرية، ورقصهن، وأغاني المذياع والتلفزيون لديهن، تغلق «ميس» غرف أبواب جناح القتل، مهجعاً مهجعاً، يرافقها ضابط برتبة عقيد، يقتربان من باب غرفة الإيداع، ويأمرنا «أبو تيمور»: «قوموا عَ حيلكن إنتي وياها.. يالله!».

أقف صامتة، يسأل العقيد، مدير السجن الذي يقطب حاجبيه، ويرمقنا بنظرات مرتابة من الأعلى إلى الأسفل، عن الاسم، والتهمة، وعندما يصل الدور لي، يسمع اسمي ولا يطلب أن يسمع التهمة، يقول لي: «إنتي مشرفة الغرفة يا زحلوط.. بتديري بالك عَ البنات.. رح بتضلي هون لحتى الله يفرجا.. وبتنامي على هاد التخت.. لنشوف شو بيصير بوضعك!».

ويقوم «أبو تيمور» باصطحاب الفتيات كلٌ إلى الجناح الخاص بتهمتها، وأبقى أنا مع الفتيات اللواتي سيُعرضن غداً على المحكمة، أو ينتظرن تسفيرهن إلى محافظات أخرى!

وإذاً، لن يأخذوني إلى جناح «السياسيات»: «أي وشو هلق؟ آخرتي عكيد القاووش؟».

تدعوني إحدى نساء دوما إلى العشاء مع أخواتها ومع صبيّة عراقية، قاصر، ستسفّر قريباً إلى أمها في اللاذقية، لتستلمها، بعد أن عملت لأربع سنوات في مقاصف «جرمانا» و«التل». بعد العشاء ترقص الفتاة بحكم العادة، لا بحكم الفرح!

أفتح عيني، أنا على فراش حديدي، في غرفة كبيرة، حيطانها بيضاء، وشبابيكها ضيقة عالية، لقد تذكرت: أنا في سجن عدرا للنساء!

ملك ما تزال في فرع الأمن السياسي، عليّ أن أنتظر ليومين، حسب كلام الرائد وسام، قبل أن يفرجوا عنها، أو أراها هنا مجدداً.

تقرع علينا الباب، إنها «ربا»، وفي يديها مخصصات غرفة الإيداع من الخبز، وعليّ أنا كمشرفة غرفة أن أضعها في المطبخ، تستوقفني: «سيكارة.. بس سيكارة الله يخليكي..».

سبب آخر لأشعر بالكراهية تجاه السجائر القاتلة، إنها سبب آخر لذلّ النساء في السجن.

«آسفة.. أنا ما بدخن..».

صوت فيروز ينسكب من إذاعة السجن على كل الممرات، يجتاز القضبان ليجلد قلبي، ليس هنالك أصعب من التعذيب بصوت فيروز في الصباح، وأنت سجين!

لوّحت لي فتاة في الثلاثينيات من عمرها من بعيد، قرأت على شفاهها: صباح الخير.. وابتسامة ملء الصباح، لا بدَّ أنها من «جماعتنا»، الابتسامة في وجه السجينة للسجينة السياسية هي كلمة السر هنا: «نحنا معكن.. الله يقويكن..».

تخاطر وتخترق قرار منع أحد من الحديث معي، تقترب من الباب المقفل وعينها على الممر حيث غرفة «ميس» مشرفة الجناح: «بس بدي قلك.. أنا اسمي تقلا.. إذا احتجتي شي هون بس خبريني.. إنتي شو اسمك؟».

«هنادي».

كلماتها تنسيني أنني في جناح «القتل». تبتعد واجلة قبل أن يمسكوا بها تتعاطى السياسة معي، وتقترب ربا حاملة إلينا الفطور في «توبر وير» مليء بالفول، وجرزة بصل أخضر!

ليس هنالك تلفاز في غرفة الإيداع، كما أن الاتصالات الهاتفية محددة باتصال واحد يومياً، لا جرائد رسمية ولا غيرها، ولا مجال لقليل من الصمت وسط جلبة الفتيات في غرفة الإيداع المغلقة، لقد مضت الدفعة المتجهة إلى المحكمة منذ التاسعة صباحاً، وبقيت فتيات التسفير ينتظرن رحلتهن الصعبة!

في الخارج تتمشى الفتيات والنساء المحكومات بجناية القتل، يتمتعن بالتنفس طوال اليوم، ما عدا وقت «التأمين» الذي يمتد من الثالثة إلى الخامسة عصراً، وفيما عدا ذلك أراهنَّ يصرخن، يختلفن بحدّة حول من تكلمت على حصّالة التلفون وقتاً أطول، ومن كان دورها في تنظيف الغرفة أو الممر اليوم، وترتفع الأصوات في شجارات لا تنتهي.

«حنين» لا تكترث لهنّ، هي تنتظر حكماً في جريمة قتل سائق تكسي مع زوجها، شريكها في الجريمة، أخذ أهلها ابنتها لتربيتها، وتركوها ملقاة هنا لمصيرها، تخبرني أنها بدأت بالعمل منذ اليوم الأول لوصولها إلى هنا، وضعوا لها كومة من الملابس لغسلها مقابل عشرين ليرة، أما الآن فيصل أجرها لقاء غسل الملابس إلى مئة وخمسين ليرة، إنها تشطف الممرات، وتجمع القمامة من الغرف، وتحمل الأغراض من السوبر ماركت إلى الفتيات مقابل ألف وخمسمئة ليرة في الشهر، تكاد لا تكفيها ثمناً لسجائرها!

وطفل صغير، لا أفهم ماذا جاء به إلى هنا، يركض بين النساء والفتيات، فيحتضنّه ويقبّلنه ويحملنه، وكأنه ابن لهنّ جميعاً، ويضربنه كذلك وكأنه ابنهنّ جميعاً!

بفارغ الصبر، أنتظر وقت السماح لنا، نحن نزيلات غرفة الإيداع، بالاتصال. أجهّز بطاقة المحامية سيرين خوري التي أعطتني إياها منذ يومين، النقود في يدي، أحسّ بالعرق في قبضتي وأنا أمسك أخيراً بسماعة التلفون، ألقّن الرقم لـ «ميس» التي ترمقني بنظرة فاحصة.

«آلـو.. إي سيرين..». وما إن يأتيني صوتها الحنون من الطرف الآخر حتى أخالها أمي، فأحكي لها كيف ضربتني تلك الـ... وأسألها متى ستزورني؟ أراقب ثوانيّ وهي تتناقص، تتسارع أنفاسي..

«آلو سيرين.. إي بس ضروري تجي.. بدي أرفع دعوى عليها.. إي تعي السبت إذا بتقدري أو..».

تنتهي دقيقتي اليتيمة، وأعود دامعة العينين إلى الغرفة التي يغلق بابها بعنف ورائي!

في الليل حين ينام الجميع، يصلني صوت نشرة الأخبار من قناة «الدنيا»، أسمع تسجيلاً لأخ صديقتي، فدوى سليمان، يتبرأ منها، ويقول: «لا، مو هيك نحنا تربينا يا فدوى»! لا أعرف ماذا فعلت فدوى، لكنني أوقن في تلك اللحظة أنها فعلت ما يستحق العقاب من إعلام النظام، والنظام، وما يجبر عائلتها على أن تتبرأ منها علناً!

آخر مرة رأيت فيها فدوى اختلفنا حتى العظم، كنت ممن يؤيدون الاستنجاد بالاتفاقيات الدولية والمواثيق الخاصة بحقوق الإنسان، لوضع العالم أمام مسؤولياته في حماية «الإنسان» السوري، فيما كانت فدوى ترى أن الحل يجب أن يكون سورياً خالصاً، وأننا يجب ألا ننتظر خيراً من الغرب خصوصاً، والخارج عموماً، وكنت أرى نبلها في طرحها ذاك، وأعرف أننا

لسنا مختلفتين في الجوهر، لكننا كنا نحسّ أن العالم قد تخلى عن الثورة السورية، وأنها أصبحت ثورة «يتيمة»!

رغبت في تلك اللحظة ان أعتذر من فدوى عن نزقي، وأحسست بأنني فخورة بها، وأنها أخت في النضال بحق!

لكنني لم أتصل بأحد في اليوم التالي، كان اتصالي بسيرين وروايتي لحادثة الاعتداء عليّ عبر الهاتف، سبباً في حرماني نهائياً من الاتصال التلفوني!

أشتري مرآة صغيرة، وأقلام كحل وحمرة، أستلقي في حضن «صفاء» الفتاة المراهقة الصغيرة، وهي تعيد تحديد حاجبيّ الكثيفين، ليعودا حاجبي فتاة كنتها قبل اعتقالي وإهمال وجهي، أعود للإمساك بقلم الحمرة مجدداً، وأعيد الألوان قسراً إلى خديّ وعينيّ وشفاهي رغم أنف دموعي!

صباح الأحد، التاسع من شهر تشرين الأول لسنة 2011، أبلغتني الشرطية أن ألبس الثوب «الجزائي»، فلديّ زيارة محامي! أنزل الأدراج دون أن ألامسها، أعانق «سيرين» وأشتم رائحتها، وأضمّ شعرها الأجعد بأصابعي، لأتأكد أني لست وحيدة هنا، وأن هنالك من يعرف أني هنا!

«ما كنت عارفة كيف بدي إجي يا هنادي.. لازم روح على تعزية مشعل».

«كيف؟».

تضعف سيرين أمام دموعي: «قتلوا مشعل التمو.. ما بتعرفي؟».

تسأل الشرطية: «ماعندن تلفزيون يحضروا الأخبار؟ السورية ع الأقل؟».

تضمني سيرين وأنا أبلل سترتها، هي لا تدري كيف تعتذر مني، وأنا لا أعرف كيف أُخرِج من أذني صوت «هرفين أوسي» رفيقة مشعل يوم الحكم عليه: «كلنا مشعل يا مشعل!».

أضم سيرين وتحيط بذراعيها رأسي، دون أن تتمكن من إبقاء تلك الصرخة بعيدة عن أذنيّ، أو من تجفيف دموعي!

أنا متوترة منذ الصباح، لقد مرَّ أسبوع على دخولي رحم سجن «عدرا»، ولا أعلم بالضبط متى أولد منه من جديد.

أمس طلب رؤيتي مندوب الوكالات، طلب مني التوقيع على توكيلي لمحامٍ جديد، وقال لي على عجل: «المحامي من طرف أخوكِ السيد نبيل»!

كدت أنسى حقاً أن لي إخوة، فالبقاء في الأقبية المظلمة الباردة، وعدم التحدث مع أمي عبر الهاتف، كما كنت أفعل كل يوم، وعدم مشاهدتي لقناة «الدنيا» بشكل اضطراري، كلما ذهبت إلى منزل أهلي في اللاذقية، وهذا ما كان يحدث كل أسبوع، هذا الحصار في الاعتقال والتحقيق والمرض لثلاثة شهور مضت، أنساني أن لي إخوة! هل تذكرني أمي حقاً؟ هل اتصلت بأخي ليوكّل لي محامياً، هل صرخ أبي مطالباً برؤيتي من فراشه، مزيلاً الأوكسجين عن وجهه الحبيب؟

نبيل، أخي الذي يكبرني بسنتين، طبيب أطفال سافر منذ عامين إلى السعودية، اليد الحانية على أمي منذ نعومة أظافره، فقدته هي، بسفره، ابناً مطيعاً، وفقدته أنا، أخاً داعماً لي ولتوقي، لأعبّر عن نفسي بوضوح. اسمه اليوم يوتّرني، ولا أعرف ما إن كان ذلك فرحاً أم خوفاً.

ملك كذلك في بالي منذ الصباح، لا يعقل أن تتأخر أكثر في فرع «الأمن السياسي».

«لازم تجي رفيقتي ملك اليوم!»، هكذا أقول بحزم وقلق لصديقاتي في غرفة «الإيداع»، وأتابع تجفيف أرض الغرفة!

أبتلع الفاصولياء الخضراء مع البرغل على الغداء بصعوبة، أسمع صوت باب الجناح يفتح من آخر الممر، أعرف أن «أبو نغم» جاء ومعه سجينات أخريات، يصلني صوت يشبه صوت قدمين بخفين في «أرض الديار»، ألتفت إلى الباب، فأراه يفتح لتعبر منه قدما فتاة تلبس فستاناً أسود، وفي قدميها «شحاطة إصبع»، تركلها أصابعها بلا مبالاة وتصفع بها الأرض!

إنها ملك! ومن سواها تعتقل للمرة الثالثة بكامل أناقتها وزينتها، و«شحاطتها»؟ أرتمي في حضنها، مشتاقة أنا لجنونها، وشعرها الأصفر الذي لا أحب لونه، ولذوقها الغريب في الملابس، ولعنادها الرهيب في التظاهر وفي التحقيق!

«كيفك إنتي يا زعرة؟».

«مشتاقتلك..».

«لك احزري شو.. حوّلوني اليوم عَ القضاء بعد الظهر وما في ولا حدا من محامينا.. لا خليل ولا سيرين ولا حدا.. بس القاضي كان كتير حبّاب.. سجّل كل شي عَ السريع.. وقلّه للشرطي: «وديها عَ الدورية لتحت وبوجهك عَ السجن.. ودير بالك عليها.. ما بدنا يصير فيها متل ما صار بالمرة الماضية».. هنود.. ليش شو صار معك؟».

«والله يا عمري ما بعرف كيف بعتولي وحدة ضربتني.. وهيك!».

«إي قلّي الشرطي.. عطاني اسمه.. وقلّي قولي لرفيقتك إنه اللي ضربتها محامية اسمها هلا زحلوط.. وإنه ترفع دعوى عليها وأنا بشهد معها.. هنادي لازم تشتكي!».

ملك شعلة من الاعتراض على كل شيء، الاعتراض لديها هواية لأوقات الفراغ!

تجلس ملك مساء على الأرض قرب الباب، تفترش «الحرام» المخصص للجلوس في هذا المكان، «إنها شرفتنا» هكذا أسميناها. تقول لها «عفراء»، الفتاة العراقية ذات الستة عشر عاماً: «شوفي.. ترا بيه هناك وحدة شكلها معارضة مثلكم..».

«وليش بقى خطرلك إنها معارضة متلنا؟».

«شعرها أصفر.. وحاطة نظارة متلك.. وتلبس تنورة قصيرة متلك بعد!!».

تنظر ملك إليّ وتلتقي نظرات استغرابنا، تقترب ملك من الباب، تنادي على المرأة التي تناهز الستين من عمرها: «حضرتك الدكتورة «ر»؟!».

الدكتورة التي تقف على أطراف أصابعها لترى وجوهنا، وتضع أحمر الشفاه الجميل على شفتيها ترد: «أيوه.. فيه شي؟».

تقفز ملك وأضحك أنا، لقد عثرنا على الكنز! فالعثور على سيدة معارضة، تستطيع أن تتحدث مع السجينات خارجاً، وتستطيع أن تتحدث معنا، يشبه اختراع الإنترنت، فذلك كفيل بكسر الحصار المفروض علينا!

ترسل الدكتورة لنا الجرائد التي تصلها، تلقيها إحدى سجينات «القتل»، وتهرب، نبعث لنا بالكتب وبداخلها أوراق بيضاء رقيقة تشبه ورق الزبدة، الآن نستطيع أن نكتب لها ونعيد الأوراق بين الجرائد والكتب، إنه «ماسنجرنا» الخاص!

في الصباح تقترب الدكتورة من بابنا، بكعبها العالي الصوت، تستغل استمرارهن في النوم وتدق باب غرفة «الإيداع» المحظورة، وتطل باسمةً كشمس تشرين.

«وينها ملك؟»

«بعدها نايمة دكتورة.. سهرت للصبح عم تقرأ..».

«ما تقوليلي دكتورة.. أنا بقلك هنادي وانتي بتقدري تناديني باسمي..

الصبح من الساعة تسعة للساعة 12 فيه ميّة فاترة بالحنفية الباردة.. بتجي فاترة شوي.. تحمّموا الصبح أسهل..».

«سمحولنا بسخانة وطنجرة صغيرة.. اشتريناهون بخمسمية ليرة.. عم نسخّن مية فيهن.. وطنجرة ورا طنجرة..».

«ليكي أنا بدي أروح هلّق قبل ما تجي «ميس».. إذا بدكن شي اكتبولي رسالة وخلّوها لإجي أو ابعتولي ياها مع شي صبية ظريفة..».

وتغادر بكامل أناقتها وابتسامتها..

تقطع إذاعة السجن أغاني فيروز، وتعلن أسماء السجينات اللواتي لديهن زيارة اليوم، الأربعاء، وبينهن اسمي!

«إلك زيارة..».

ألبس على عجل الثوب الأزرق المقيت، وأنزل إلى قسم الزيارات، أتطلع من خلال القفص، فأرى من بين القادمين من الطرف الآخر أخي «نبيل»! منذ سنة لم أره، ودّعني آخر مرة طالباً مني أن أعتني بنفسي.. أتطلع إلى وجهه الجميل البريء، أبحث في تفاصيله عن جمال ضيعتي «الصنوبر»، عن جمال غابتها وروعة نهرها، أبحث عن طيبة الريف في وجهه وعن حنانه، فأنا عطشى لوجهه، كما لوجه أمي وأبي!

ينظر طويلاً إلى الثوب الذي أرتديه، يتكىء على القفص الحديدي: «مبسوطة هلق؟».

«إنت قاطع كل هالمسافة لتقلي هالكلمتين؟».

«إي..».

يخبرني عن أبي المريض، وأمي الصابرة، والناس الذين يُقتلون في الشوارع: «فيه قزّامات لحمة برا.. مجازر.. نحنا متطمنين عليكي بالسجن أكتر ما تكوني برّا..». يلومني على ما أوصلني إلى هنا، ودماغي العنيد: «مفكرين حالكن رح تغيّروا البلد؟».

أفكر: «إذا ما غيّرناه نحنا اليوم.. رح يغيّروه ولادك وولادي بكرا».

أسأله عن أولاد إخوتي، أولاد قلبي.

«ليش عم تسألي عنّن؟»

«ما بيهمني حدا غيرن.. إنتو الكبار بتعرفوا تحكوا إذا حدا حكى عليّ قدامكن.. هنن أكيد رح ينضغط عليهن كتير.. وصغار...».

أبكي عندما يسألني عن أمي، وماذا أريد أن أقول لها: «قلّا أنه.. تدير بالها على حالها.. وأني بحبها كتيرا».

تنتهي الزيارة بجرس يرنّ موجعاً قلبي، ومذكّراً إياي بضرورة مسح دموعي! يمدّ «نبيل» يده من وراء الشرطية التي تسلمني ما أتى به من ثياب وطعام، ويعطيني مبلغاً من المال، ويستغلّ الفرصة ليمسك بأطراف أصابعي، وأشدّ على أصابعه، فأنا لا أعلم متى سألمس يده مجدداً، أضمّ يدي، وأقف ذاهلة وهو يبتعد، وجسدي يبرد، ويبرد..

صباح البنفسج

الصحو باكراً في السجن له طعم مختلف، الجميع نائم، هنالك فسحة منيرة للهدوء، ضوء الشمس ينساب دون أن تتمكن أشعتها من الوصول إلى خصلات شعري، مدفأة صغيرة تحاول جاهدة تسخين المياه لحمّامي الصباحي، إنه وقت الانتعاش!

ملك ما تزال نائمة، وقد حدّثها كتابها حتى انبلج الصباح، والأبواب الحديدية للمهاجع في جناحنا، تفتح جميعها، عدا غرفتنا، وتبدأ السجينات بالخروج إلى الممر، أفترش الأرض وأجلس قبالة الباب، أراقبهن بحسد، ورغم أنهن محكومات ومتهمات بجرائم قتل تصل عقوبتها إلى الإعدام، فإنهن «يتنفسن»، يخرجن إلى «الباحات» و«الشرفات»، يستطعن كذلك نشر ملابسهن لتغازلها خيوط الشمس، يستطعن مشاهدة التلفاز، وأهم من هذا كله: يستطعن الحديث مع من يشأن، ويتطلمن صوبنا بشفقة بادية وقلوب مكسورة، فنحن «سياسيات»، يقلنها بهمس!

من بين القضبان أراقبهن يعبرن أمامي، معظمهن عشرينيات وثلاثينيات، هوايتهن المفضلة «الزلاغيط»، إذا جاء الطعام «يزلغطن»، إذا جاءت الشرطيات بموقوفات «يزلغطن»، إذا أخلي سبيل إحداهن: «يزلغطن»، وفي هذا المكان فقط لن تسمع إلا «الزلاغيط» إذا ما قُطعت الكهرباء!

من جهتي لم أستطع تعلم كيف «أزلغط»، كنت أغني مع صوت فيروز المنبعث من إذاعة السجن، وحين كانت تغني «شادي» كانت الدموع تقف معتصمة في عينيّ، وأتذكر رفيقي، وأبكي!

تتسلل «تقلا» خلسة لتقترب من بابنا، وتهمس: «صباح الخير يا حلوة!»، فأمسح دموعي على عجل، وأردّ: «صباح الورد! تفضلي جارتنا نشرب نسكافيه».

وكما يحضر عمال القهوة على الأرصفة مشروباً سريعاً لسائق لا يستطيع الوقوف والانتظار، أناولها فنجانها بسرعة، وتبتعد إلى غرفتها وهي ترمقني بنظرات سعيدة و.. نضحك!

يصلني صوت نشرة الأخبار، أجلس متشنجة والكلمات تحفر في كياني، ما تزال المظاهرات مشتعلة كما كانت، «الشعب يريد إسقاط النظام»، هنالك وطن يولد من جديد في الخارج، وأنا هنا بيدين مكبّلتين، لا أستطيع التخفيف من آلام مخاضه، ولا أن أخيط للمولود ثيابه البيضاء الأولى!

أرتشف غصّاتي مع شراب تبدأ حرارته بالتلاشي، ويندفع طفل صغير، يشرق وجهه من بين القضبان، يجلس قبالتي بكل جماله، ووحده يعطيني كل سعادة الدنيا وهو يرمق فنجاني بعتب، ويسألني: «وين فنذاني؟».

الصغار في السجن، جريمة لا مبرر لها، جريمة لا يحاسبنا عليها أحد، أو ربما يحاسبنا عليها الصغار حين يكبرون!

على «البطانية» التي أفرشها تحت الباب وعبره، نجلس أنا وصديقي «أحمد»، نرسم معاً بالألوان التي اشترتها لنا الدكتورة، أحمد مولع بالفراشات، وبالأشجار، والعقوبة الكبرى أنه يريدني أنا، السجينة التي لم أرَ ضوء الشمس منذ ما يقارب ثلاثة أشهر، أن أرسم له السماء والأشجار والفراشات!

أحاول إيقاظ ملك فيردد خلفي: «ملوكة.. يا ملوكة.. فيكي بكى عم نثلب نثكافي..».

يرسم ملك، خيوط شعرها المبعثرة باللون الليموني، وعيناها نقطتان بنيّتان، وفمها خيط متأرجح أحمر، ولا ينسى نظارتيها الحمراوين! نتفق معه أن يذهب ليشرب الحليب عند أمه، وأن يعود على الغداء لنأكل معاً، ويقبّلني الطفل على عجل ويذهب، فتركض دموعي وراءه.

يرنّ الجرس في الممر، تصيح الشرطية بأسمائنا بحنق وتخبرنا وكأنها مجبرة على ذلك بأنه لدينا زيارة محام. نركض على الأدراج لنصل إلى تلك الغرفة الصغيرة، التي تكاد لا تتسع لفرحتنا بهم: خليل معتوق، وميشال شماس، وأنور البني، أتوا جميعهم لزيارتنا. زيارة المحامي فرح خالص، إنه ساعي البريد الذي يحمل لنا الأخبار، والمحبة الصادقة، وسط الجو المعادي الذي نستشعره كل ثانية في السجن.

سلامات حملوها لنا من أهل ملك، من أصدقائنا في الخارج، ومن أصدقائنا في سجن عدرا، «أبناء دعوتنا»، تعلو ضحكاتنا وكأن المكان حديقة، ونكاد ننسى الوقت لولا تنبيه الشرطي لنا، بأن الزيارة انتهت!

على عجل يخبرني خليل بأن مازن ويارا قد تزوّجا، تغمر الفرحة قلبي. «بس ما عملوا عرس.. ناطرينكن تطلعوا» يضيف خليل.

«قلن ألف مبروك..».

نودّعهم، يبتعدون، نصعد بالحقائب الكثيرة التي جلبوها لنا، وتبدأ في غرفة الشرطيات حفلة تفتيش لا تنتهي، وأشعر بالقهر وأنا أرى الشرطية تعبث بالملابس الداخلية التي لم نرتدِها بعد، وتفتح أغلفة المحارم النسائية، محرمة محرمة!

يعيدوننا إلى الغرفة، مع أغراضنا بعد احتجاز الكتب، والشامبو، والشوكولا! تقفز ملك في الغرفة، ثم تداري فرحها من أعين السجينات الأخريات، لقد استطاعت أن تلتقط من بين الكتب أثناء تفتيشها رسالة دسّت هناك خلسة، الرسالة من صديق، وجلسنا نفكّ تشفير الكلام، ونضحك، ونبكي!

بعد «التأمين الليلي» يأتي أبو نغم لاصطحابنا أنا وملك إلى غرفة الشرطيّات، يدق قلبي، لقد فُطرنا على الخوف أيها السوريون، فتخاف حتى والقيود في أيدينا!

نرى الدكتورة قد سبقتنا، يرمقنا مدير السجن العقيد «خالد العيص» بنظرات فاحصة، من الأسفل إلى الأعلى، وبالعكس، فنستعيذ في قلوبنا من الشيطان الرجيم!

«شو يا دكتورة؟ وصلني إنكن عم تتبادلوا الرسائل.. وتعدّى الموضوع الوقفة على الباب!».

«والله يا سيادة العقيد، البنات عم يحتاجوا كتير شغلات.. وما عندن لا تنفس ولا تلفون.. فالقصة وما فيها إني كنت رايدة أشوف شو محتاجين.. أصبّح عليهن.. وأتطمّن على صحتهن..».

أقاطعهما:

«لحظة سيادة العقيد.. فيه أمور أنت عم تتجاهلها.. أنا اعتُقلت وأبي على فراش المرض وأنبوب الأوكسجين على أنفه.. وأمي كمان كبيرة بالعمر.. ولهلق ما قدرت اتصل.. اسمع صوتن.. اتطمّن عليهن.. أنا من تلات شهور ما شفت الشمس يا سيادة العقيد.. بين الانفرادي بالسياسية.. وهون.. أنا محرومة من أني حس أني عايشة.. أو اسمع صوت أمي.. أنت يا

سيادة العقيد.. لو عندك ولاد.. لو عندك بنت.. فكر أنه ممكن كتير تكون مكاني.. حاول بس تحط حالك محل أبي..».

تقاطع الدكتورة ألمي: «يا سيادة العقيد.. هن محتاجين يشوفوا الشمس منشان عظامن.. منشان ما يمرضوا.. وأنا بوعدك إذا طلعوا يتشمسوا نص ساعة باليوم أني ما أحكي معن.. طاول طاول..».

يتراجع العقيد شيئاً فشيئاً أمام إلحاحنا على رؤية الشمس، ويوضح أنه سيرسل بشأن السماح بالاتصال الهاتفي كتاباً خطياً إلى وزارة الداخلية، طالباً الموافقة، ويودّعنا مذكّراً بأن تنفسنا سيكون نهارياً ولمدة ساعة، على أن تقفل الباحة وراءنا، فلا يتمكن أحد من إلقاء التحية علينا!

وأقفل الباب!

كانت الشمس الشتوية تميل نحو الغروب، فلا يتبقى منها سوى ما يضيء على رؤوسنا وأكتافنا، نرفع أيدينا لنلامس خصلاتها، وندير لها ظهرنا لتداعبه، وتدفئه!

تقترح ملك أن نقوم بعد أن نخرج، بتجسيد هذه اللقطة النادرة في فيلم قصير، صامت ربما، وأستسيغ الفكرة جداً..

الشمس المسرعة تودّعنا، وأحاول جاهدة الاحتفاظ بدفئها في قلبي، فأكتب لها، في يوم تنفسنا الأول، وملامسة أول خيط من عباءتها:

دفعوني لحضن الشمس وأغلقوا الباب
معي ملكٌ.. والشمس أمي..
لم أرها منذ اعتقالي
سماؤها صافية هذا اليوم
لا فنجان قهوة في يدها.. ولا سحابَ
ثوبها الريفي البهي الطويل
حتى الأرض

وحضنها.. يا حضنها بعد الغياب
وما استطعت وضع عيني
في عينها
وما استطعت البوح
كسيرة أنا دونها
كسيرة في حضنها
والسجن لا يليق مطلقاً بوجهها الصبوح
جاءت تزور بناتها
رأتهم.. ضمتهم
وتلمّست في الروح
بعض جروح
ملكٌ أرتها شعرها الذهبي

قالت لها:
يا أمي الجميلة.. شعري يطول
سأكون مثلكِ.. أشبه وجهكِ
سأعود راكضة في الشوارع والحقول
ومعي ملايين البنات والشباب
أرتقي
لأُسمع الدنيا ماذا أقول
عصفورتان نحنُ
عصفورتان حبيستا قفصٍ صغير
فإذا مددت جناحي لمستها
وإذا أرادت الطيران بكيتُ
فلست أطيق لها ألا تطير
إن مرّت سنونوة تبشّر بالربيع

ينعق ألف غراب
وفي الحال يشهر سيفه عسس الأمير
مضت الثواني والدقائق كلها
والشمس تقرؤني

من قدمي الباردةِ
إلى يدي الشاحبةِ
إلى شفتي
لم أنتبه للظل يطردها
وهي تقبّل خدّي.. وتجفف دمعتي
رفعت يدي
أتمسّك بآخر خيط من شالها
غاليتي!

نسمة السجن

أحمد، النسمة الوحيدة في صحراء السجن المترامية، النسمة التي تعانقهنّ، فتعيد الحياة إليهن، تجعلهن يلامسن الحياة بعد أن افتقدنها، يداعبن طراوة البراءة بعد أن قُتلت في نفوس كثيرات منهن. السجينات كلهن يبكين حين يرين أحمد، يرين فيه عقوبة مؤلمة لنفس بريئة لم ترتكب أي إثم!

أحمد، ابني المرتجى، كم أتمنى معانقته والطيران به بعيداً عن كل القضبان والجدران، واصطحابه إلى حديقة صغيرة وقطف الأزهار معه، قبل أن تحرق القذائف كل الورود، أحلم به يذهب إلى مدرسة لم يخترقها الرصاص، ولم تنزف ممراتها، أودّ تخبئته في منزلي الصغير، في القبو، كي لا يعتقلوه ويعذبوه!

أحمد هو الآخر يذهب كحلم قصير، كحلم ما تمكنت بسبب القضبان من الاحتفاظ به في قلبي، رحل إلى جدته، وبقيت أمه تقضي حكمها المؤبد دون أي دمعة!

أكتب له، لأحمد الجميل، ورسومه ما تزال مخبأة في أدراجي، وقلبي..

الرسام الصغير

- 1 -

لم يعد أحمد من هذه الزيارة

الطفل ذو الربيع الثالث
وبسمة السجن الصغيرة
سأفتح العين غداً
والحبس سجنٌ دونه
وغداً
أنا لن أعود طفلةً
ألثغ من لغته
ولن أمدّ من بين قضبان الصقيع ذراعي
إذ يشعل الصغير ضحكته لي ناراً..

- 2 -

وكلّ يومٍ كان يوقظني
يصير اسمي نغمةً في فمه
وأشرب معه حليب الأبطالِ
وأفرش
من تحت باب غرفتي
حرامنا البالي
كي نجلس
وأحمي قلبه من السعال..
يا أيها الابن الذي ما ولدته
أين ذهبتَ وتركتني يا غالي؟

- 3 -

سألته يوماً عن عشه فقال:
أمي هنا، في السجن، باقية لعشرِ سنين وعشر ليالٍ..

وإخوتي الصغار خارجاً..

وأبوك؟

صمت الطفلُ..

شحب اللونُ..

لا تبكِ.. لا تبكِ..

أموت أنا من دمعكَ القتّالِ..

- 4 -

ويرسم دائماً فراشةً صغيرةً..

في دفتري..

تطير!

على يدي.. تطير!

لِمَ تركتَ جناحي منكسراً يا صغير؟

- 5 -

ولم يعد أحمد من هذه الزيارة..

لكنه سيزور حتماً أمه عما قريب

ستضمه..

كما أشتهي..

سيكون مرتدياً ملابسَ جميلةً..

كما أشتهي..

وسيذهبُ إلى المدرسةِ بوجهٍ بهيّ..

ويملأ الدفاتر والحيطان..

فراشات..

ولكن: من يلوّن حائطي أنا ببياضه الكئيب؟

رسالة إلى أمي

يزورني أخي الكبير مرة، مرة واحدة فقط، مُرّة، مليئة باللوم على ما فعلت بأبويّ، وبأسرتي كلها..

يبتسم لي مشجعاً بعينيه، وعلى لسانه ألف أسف على ما صنعت بيدي، ويقول لي بأنه أخبر والديّ بأنهما السبب فيما وصلت إليه، لسماحهما لي بالعمل بعيداً، خارج المدينة التي تربيت فيها، هو يعلم بأن والديّ هما واحة حريتي الأولى، وقبلة فخري الأوحد..

أكتم دموعي عنه، وعن ملابس أختي وأمي التي أتاني بها بيديه الدافئتين، لأتدثر بها من برد الشتاء، ألامس يديه وأنتظره طويلاً بعد رحيله، لأنه وعدني بأن يأتيني بكتاب في البرمجة اللغوية العصبية صادره مدير السجن، لكنه لم يأتِ!

يا أخي، اليوم فقط أعترف لك، لم أفقد أعصابي يوماً، لأنك وإخوتي، وأمي وأبي، كنتم دوماً في تفكيري، وكانت الأرض التي عملنا بها معاً، وسقيناها بعرقنا ودمنا تسند جذعي الضعيف، وتقوّيني وتبقي رأسي متوازناً دوماً!

أدرك أن اختلافنا عميق، كشرخ في الأرض، لكن الأرض واحدة، واحدة وإن كان بها شروخ، والإنسان الذكي، الإنسان الإيجابي، هو من فكّر باختراع الجسور لتجاوز الشروخ. مهما كبرت، هنالك جسور قوية تمتد لعشرات

الكيلومترات، يدك في يدي اليوم، جسر يمتد من الشام إلى اللاذقية، هل تدري ذلك؟

أتذكر أمي بشكل خاص، أعبر إليها فوق ألمي في صحوي ومنامي، أشتمّ فنجان قهوتها الصباحي، ورائحة ثيابها، والماء الذي يقطر من أطراف شعرها الأبيض المتموّج على فستانها بعد حمّامها.

أتذكرها صامتة إزاء إلحاح أبي على أنها لا تعتني به، هي التي تحبه حدّ الولع، ولا يعلم مقدار حبها ذاك سواي، أنا التي طالما ارتشفت معه قهوتها صباحاً، ورأيت الضجر في عينيه وصوته حين لا يراها، إنه عشق الفلاحين يا أبي، إنه عشق المزارعين يا أمي، عشق صامت، كعشق الأشجار للأرض، مشرّش في الأعماق، برّي، جافّ، وبسيط، مؤلم أحياناً، ومزهر أحياناً أخرى، كلّه عطش للأعمق، وصامت، صامت، دون كلمة عشق واحدة!

أختلي إلى ورقة بيضاء وأكتب لها بعضاً مما استطعت أن أفرج عنه من حب مكبّل منذ طفولتي، ومنزوٍ في قلبي..

وأكتب..

رسالة إلى أمي

- 1 -

وقولوا لأمي إني بخير
أشرب القهوة عند الصباح بفنجان حزين
يبكي يديها
وأرشف شوقي لسكّر إصبعها يذوب في قهوتي
إذا ما سكبت بفرح فنجاني
كل صباح من يوم الجمعة
وقولوا لأمي إني أذكرها

واني لا أنسى...
وكلما قلبتُ فنجاني الصغير تنساب من خطوطه
ألف ألف دمعة
وطمئنوها وقولوا إني بخير

- 2 -

واهمسوا ليديها إني عطشانة
عطش الشتول في أرض غريبة
ومن ليس يعرف يديها أمي
التي تعطي الكروم حلاوة العنب
كم مرة جلستِ باكية في الظهيرة
وأنا معكِ
وجسمكِ الضعيف كلّه التعب
وعدتِ.. نهضتِ
يداكِ تقتلع العشب والأشواك
ودمعكِ يسقي العشب والترب
مشققة يداكِ.. ودمعكِ ماسٌ
وسبعون عاماً قلبكِ من ذهب
يا أرضي الخضراء
خبئي دموعكِ.. إني بخير!

- 3 -

اشتقت إلى حضنكِ حيث ضلوعكِ حملت إخوتي
وكلّ الصغار
غسلتِ بالملح أبناء جاراتنا..
بسملتِ في آذانهم في أول نهار

لففتهم أنتِ بحرير يديكِ

يا أم كلّ الحيّ

يا بسمتي الأولى.. وشمس آذار

من أجلي أنا.. من أجل صغاري في الغد

أرجوكِ يا حنونة.. كوني بخير!

- 4 -

في سجني أحبكِ أكثر كل يوم

فمن شبّاك سجن الصقيع أراكِ

وينساب نورك بين الغيوم

يا قمري.. ابتسمي

ورتلي الآيات لربّ يشاء

وضمي بخوركِ على جمر المساء

لأعود جنيناً في قلب رحمكِ

ونامي يا قدّيستي.. لأبقى بخير!

وبقيت رسالتي هذه إلى أمي دون أن تحملها أي حمامة، من قلبي!

مشردة بعيداً عن «فراش الزوجية»

لم تكن ملك مجرد صديقة عرفتها منذ سنتين، لقد أصبحت الآن رفيقة سجن، ورفيقة درب الحرية!

لا أحب أن أشرب «النسكافيه» الصباحي دونها، فمن خلال «صباح الخير» المفعمة بالحب التي تهمس بها، حتى عندما تقولها مساءً، أستطيع سماع صوت أمي وهي تناديني من بعيد، وأستطيع أن أشمّ رائحة قهوتها!

هذا الصباح كما أغلب صباحات السجن، لدينا أيضاً كتاب صباحي جديد، «مقاومة» لـ سهى بشارة، اللبنانية التي حاولت اغتيال العميد أنطوان لحد قائد جيش لبناني الجنوبي الذي قامت إسرائيل بتأسيسه.

أرتشف النسكافيه وأتوغل أكثر متمعنة في تفاصيل سجنها، وانفراديتها، وكيفية تواصلها مع زميلاتها في المنفردات الأخرى، عن طريق صابونة حفرت بها رسائلهن، بدا الأمر شبيها جداً بمغامرة أخرى في أحد أقبية الأفرع الأمنية، والتبس ظل الاحتلال بنظام ظلاميّ يدوس حريتنا!

لم يكن في غرفة «الإيداع» سوانا أنا وملك، جميع السجينات ذهبن إلى المحكمة، أيقظتها مراراً، فلم تفتح عينيها، وجلست على الأرض وحيدة.

الجلوس على الأرض معظم الوقت في سجن عدرا، ونساء داخلات ونساء خارجات، أصوات ترنّ بالفرح، وأخرى ضرّجها الألم، وأصوات تئن تحت ثقل اليأس، في انتظار الحرية الموعودة، التي قد تأتي، وقد لا تأتي!

أرض باردة، ملطخة بأوساخ أحذيتهن الآتية من الخارج، أو ببقع يتركنها بعد خروجهن من الحمام صوب الغرفة. تنظيف يومي، بلا طائل، نساء داخلات، ونساء خارجات، وأنا وملك باقيتان هنا. «نحن نسكن في الشارع يا ملك»، صرخة لطالما أتعبت قلبي وقد ملأني اليأس وتعبت يداي من التنظيف!

تستيقظ ملك لتراني أكاد أنتهي من «مقاومة»، نرتشف النسكافيه معاً..

«خلصتيها؟».

«تقريباً..».

«بتعرفي شو كنت عم فكر.. ممم.. القتل بيظل قتل.. ما بدي كون حدّية كتير.. بس أكيد هي جريمة.. الاغتيال جريمة قتل حتى لو حاولنا نبررها..».

أنظر إليها متفاجئة قليلاً: «بس هاد الزلمة أمر بقتل عشرات إذا ما قلنا مئات الناس.. ما بتشوفي أنه عادي العنف يولد عنف.. أنا ما عم برر.. بس الطبيعي أنه يجي يوم القاتل يُقتل.. سواء كانت هي بطولة أو جريمة..».

أحاول أن أخفف من حدة موقفها، ألتمس كم هي متألمة مما آلت إليه أخبار القتل، والعنف، وأنه كان من الصادم لنا أن يتحول أصدقاؤنا من العمل السلمي إلى حمل السلاح والانضمام إلى «الجيش الحر»، ألتمس جرح قلبها من كل هذا الدم، لكن هذا لا يمنع من أننا نختلف مجدداً، وتصرّ هي على أن ما فعلته سهى «جريمة» تستحق العقاب!

يملأ الهواء الثقيل غرفتنا، نعود للحوار عند الظهيرة حول الطبخ، والطعام الصحي، وأصرّ أنا على ضرورة الرشاقة، لا للجمال فحسب، بل أيضاً للصحة!

وتنفجر ملك في وجهي موبّخة إياي على ما قلته في أول يوم رأيتها فيه، كانت يومذاك مع صديقة لنا، سألت الصديقة عن عمرها بشكل عابر، وعلّقتُ بغباء منقطع النظير، بأنني توقعتُ أن تكون أصغر عمراً، وأتبعت

ملاحظتي تلك بأن «زيادة الحجم تعطي انطباعاً أن الشخص أكبر عمراً مما هو عليه»!

أنتبه الآن إلى أن إعطاء المواعظ في لحظات ما، قد يكون أغبى عمل نقوم به في حياتنا!

أصمت، والدمع في عيني، فأنا لم أكن أريد يومئذ جرح شعور أحد، لكنني فعلت، إذاً، فالأعمال ليست بالنوايا كما يقولون، قد تقتل وأنت تظن أنك تفعل عملاً عظيماً. أصمت، وتصمت ملك، طيلة فترة بعد الظهر، والمساء.

أحاول إيقاظها في الصباح التالي، أجلب الخبز عن الباب، أستحمّ بمياه سخنتها طنجرة وراء أخرى على المدفأة الصغيرة، وأنظف الغرفة، لا تلقي بالاً لأي من تلك الأصوات، وتستمر في نومها، ينتابني شعور سيئ، فأنا وملك وحدنا، ومن في الخارج يعتقدون أنه من البديهي أن كلاً منا تعتني برفيقتها، فيما نحن هنا قابعتان في غرفة واحدة، دون أن تتحدث إحدانا إلى الأخرى، كم نحن مخيّبون للظن!

تقترب «ميس»، مشرفة جناح القتل، من بابنا، تدعونا للتنفس: «بس انتبهوا.. برد برا كتير.. رح دخّل الصبايا وطلعكون ع الباحة..».

أضع شال أمي على رأسي وأخرج، تخرج ملك بعدي..

تضيق الباحة ذرعاً بصمتنا، يغدو بردها لا يحتمل، ويتحجر قلبها أكثر فأكثر، وأقرع باب الباحة كي تدخلنا «ميس» وقد بدأ رأسي يؤلمني..

أضع رأسي على فراش مقابل لفراشنا أنا وملك، ذاك الفراش الذي كنا قد أسميناه تندراً «فراش الزوجية»، أهجره وأنام بعيداً، ولا أصحو إلا وألم في أذني لا يحتمل..

من الباب الذي تغلقه ملك باسمة، تدخل فتاة مهملة الملابس، مشعثة الشعر، تلبس كعباً عالياً، وتقول لملك وهي مذعورة:

«لوين آخديني؟ ليكي بدّن يضربوني.. بدّن يضربوني.. أخدولي بيتي.. أنا أختي بأستراليا.. بدي اطلع لعندها.. بس إنتي.. إنتي باينتك طيبة.. وفهمانة.. ما تتركيني إي..».

أكاد أقول لملك: «ديري بالك منها»، لكنني أتذكر أنني وملك لا نتحادث!

أحاول العودة للنوم، لكن الفتاة لا تتوقف عن الهذيان، تبدو أعراض ما تعانيه شبيهة بأعراض المتعاطين الذين حرموا الجرعة، لا تتوقف عن الحديث عن نفسها وعن كونها مهمة جداً، وثرية جداً، وهي تلحق بـ ملك أينما اتجهت، وملك الطيبة تحاول احتوائها دون جدوى!

الحمى تجعلني أنام دون أن أحس بالوقت، أرفع رأسي لأجد ملك تشرب الشاي مع السجينات، أصنع لنفسي كأساً من الزهورات وأعود لفراشي متجاهلة دعوة ملك للانضمام إليهن، وكلّي رغبة بذلك!

في منتصف الليل ما عدت أقوى على احتمال ألم أذني، وقد بدأ الدم ينزل منها على المخدة، أنظر إلى ملك ودمعة في عيني، لكنها تهب واقفة وتندفع صوب الباب وتبدأ في ضربه بكلتا يديها:

«ميييييييس.. يا ميييييييييس.. هنادي تعبانة كتير وعم ينزل دم من أدنها.. هاتوا دكتور.. هاتوا دوا.. أي شي!!».

بعد ربع ساعة من قرعها الباب تنتبه الشرطة في الطابق السفلي إلى الضجيج، ويفتحون باب الجناح قادمين: «إي شبكون.. ما بتعرفوا أنه ما في دكتور هلق.. رح نشوف إذا الدكتورة عندها مسكن ألم..».

بعد الدواء، والكمادات من يدي ملك، أصبحت أحسن حالاً، ونمت أخيراً..

عندما استيقظت، أعطتني ملك حبتي دواء كانت قد أعطتها إياهما الدكتورة، وأضاعت مكانهما، في زحمة ملاحقة «المجنونة» لها، ونضحك وملك تحكي لي كيف كانت تبحث في كيس القمامة عن حبتي الدواء وقد

أضاعتهما، فلحقت بها تلك قائلة: «ياااااه.. عم تدوري بكيس الزبالة؟ ما بتقرفي؟؟».

كان وجه ملك متعباً بعد مرضي واضطرارها لمعاشرة من لم تفكر بمعاشرتهم ومداراتهم يوماً..

إنه السجن يا حبيبتي..

إنه السجن يا ملاكي..

26 ـ فروجة ـ 2011

تمضي الأيام وطلبات إخلاء السبيل تُرفض واحداً تلو الآخر، حتى ليبدو أننا سنمضي الوقت في انتظار تلك اللحظة: لحظة إطلاق السراح!

زحمة الغرفة، هذيان الفتاة المصابة باضطراب عقلي، الفتيات اللواتي يذهبن، واللواتي يأتين، ونحن باقيات هنا!

نقرر أنا وملك أننا سنتجاهل كل ذلك ولن ننتظر تلك اللحظة، نتحدث كيف سنمضي ليلة رأس السنة القادمة، ولإشباع غرامي بالكولا نبدأ بتجميع علب الكوكا، الحمراء والفضية، سنصنع شجرة من علب الكوكا المعدنية الحمراء والفضية لهذا العيد السجين!

يوماً في إثر يوم تأتينا أخبار التسلح، والجيش الحر، الدكتورة تبكي وهي تحدثني خلسة عما يجري في الخارج، إنها تتحدث مع زوجها عبر الهاتف وتعرف ما يجري في الخارج عبره، زوجها أيضاً لديه مخاوفه من كل هذا السلاح الذي يجعجع وهذا الدم الذي يسفك، نحس أن حلمنا بثورة سلمية يتلاشى، نحن الذين يسري في عروقنا عطش لصوت الناس يهدر خارجاً من قمع وظلم طويل، ليعبّروا عن آمالهم وأحلامهم، صوت الناس، خطاهم على أرصفة البلاد متقدمين نحو حرية طال انتظارها، أصواتهم المتعانقة، المظاهرات التي لا تتوقف أخبارها في كل مدينة وناحية وقرية، بلادنا التي نتعرف عليها من جديد، كل ذلك يتلاشى بطلقات غاضبة تجعل

الناس يعودون إلى بيوتهم، وتجعل المظاهرات تتقلص حتى تكاد تختفي! لم يعد السؤال متى نخرج؟ أصبح السؤال ماذا سنفعل حين نخرج؟ كيف لنا أن نعيد حلم سلميّتنا قابلاً للحياة؟ كيف نخمد نار الرصاص؟

«ما بدي حدا ينقتل.. ما بدي ينقسموا العالم لقاتل ومقتول.. لازم نعمل شي.. لازم نعمل شي..» تبكي الدكتورة.

أحاول تغيير الحديث إلى السؤال عما قاله قاضي الإحالة لزوجها، تمسح دموعها على عجل وتخبرني بأنه وعده خيراً، وأبلغه أنه يتوجب عليه أن يتقدّم بطلب إخلاء سبيل لها، بعد أن أمضت أكثر من ستين يوماً في الاعتقال، وتخبرني بأنه سيزورها نهار الأربعاء، وسيخبرها إن كان ثمة جديد.

أنتظر نهار الأربعاء، يوم الزيارات المرتقب، دون أن أنتظر اسمي بين النزيلات النازلات إلى قفص الزيارة، بعد أن مضى ما يزيد عن شهر لآخر زيارة أتاني بها أخي الكبير، زيارة اللوم المؤلمة.

صباح الأربعاء أفرح برؤية الدكتورة تضع أحمر الشفاه وتتأنق بانتظار حبيبها، وتكاد تطير إليه شوقاً، هذه أيضا آية من آيات القلوب الثائرة، وزمن الحب المفقود الذي نادراً ما نراه!

آوي إلى فراشي في قيلولة «التأمين»، وتوقظني ضحكات وزغاريد وركض في الممر.

«إخلاء سبيل الدكتورة.. مبروك.. زلغوطة.. مبروك..زلاغيط».

أبدأ بالبكاء، أركض نحو ملك، هكذا ستخرج هي وتتركنا وحدنا، من سيقول لي بأني يجب أن أوقظ ملك لنشرب القهوة معاً؟ من سيقول لملك بأن تعتني بي إن مرضت؟ ومن سيجلب لنا التين اليابس والملابس الصوفية والكتب والجرائد؟

أدوخ بحثاً عن تذكار أعطيه للتي دخلت لوداعنا، خلسة كما كل زياراتها، أكتب بطلاء الأظافر الأبيض على سوار أسود: «إيد وحدة..».

تداعب السوار بيدها وتقول لنا باسمة: «ديروا بالكن على بعض.. رح تطلعوا.. أهم شي ضلوا حد بعض.. وبس تطلعوا تعوا لعندي لشوفكن.. ضلوا حد رندة وتقلا.. واقروا كتب.. استفيدوا من وقتكن هون..».

لا أجد الكلمات كي أحمّلها لها، هنالك حسرة لأنها تركتنا وحدنا هنا، وهناك فرحة لأنها خرجت! وبين هذه وتلك: دموع، ودموع!

تقول بلهجتها الحلبية المحببة: «ما بدي أطلع بهالليل.. بدي ضل واطلع بضو النهار.. بس بَخاف فيصل يزعل مني.. ما بدي أكسر بخاطره».

أبتسم للحب الجميل، وللأنثى الرائعة التي تقف بجلالها في الستين من العُمر، تودعنا، تخرج في غمرة زفّة الصبايا، لا نسمع صوتها من جديد، لن تقف على رؤوس أصابعها صباحاً، كي توقظنا بطرق أصابعها الناعم على بابنا الحديدي البارد. هكذا كان مساء السادس عشر من تشرين الثاني، ومن بعده سيزداد برد آخر تشرين على أجسادنا الغضة بمغادرتها، أضم ملك ونبكي معاً!

في الصباح الجديد، أقاطع حنيني لصباحاتها بترتيبات عيد ميلاد ملك الذي يقترب، وبانتظار الحادي والعشرين من تشرين الثاني أوصي «على الفاتورة» على قطع من الكاتو، وشموع، وبوالين ملونة، وأوصي كذلك على «فروج مشوي»!

يُقطع طريق دوما، الرصاص يقف حائلاً دون فرح ملك بعيد ميلادها، نحتسي الكوكا بعد سلطة الذرة، في عشاء رومنتيكي ليل الحادي والعشرين من تشرين، بعيداً قليلاً عن باقي السجينات في غرفة الإيداع، وعلى وقع رصاص يأتي من بعيد، ويقتل الفرح!

ودون سابق إنذار، تصل الشموع والبوالين، وقطع الكاتو، بعد ظهر السادس والعشرين من تشرين، وقد كدنا ننسى أمرها، وتصل «الفروجة المحمّرة» بعد الغداء، لنلتهمها بفرح، «فروجة» المصادفة، ونتندر مؤرخين هذا اليوم «عيد ميلاد ملك.. 26 فروجة»!

طلّ الصبح

مساء ست وعشرين «فروجة»، هو مساء لا ينتهي، تعود «تقلا» بعد المشاء من انفراديتها ببطانيتها وقنينة مائها بيديها المتعبتين، أنا وملك نتبادل النظرات المترقبة بانتظار مرور مدير السجن قبل النوم، ويأتي..

«يبدو من الصعب تقعدوا عاقلين يا زحلوط.. شو قال عم تعملوا صبحيات إنتو وتقلا؟ وعم تبعتوا رسائل؟».

«لا ماعم نبعت شي.. كل الموضوع أنه من حقنا نحكي مع السجينات التانيين..».

«لا، مو من حقكون.. وما لازم حدا يعرف أصلاً أنه إنتو هون!».

«بس نحنا هون.. نحنا هون.. هاد أمر واقع.. ما فينك تغطي الشمس بغربال سيادة العقيد.. نحنا هون.. ومحامينا بيعرفوا هالشي.. وأهالينا اللي مانعنا نحكي معن.. و..».

«طيب طيب.. من بكرا الصبح بتجهزولي حالكن تنزلوا لتحت.. هنيك أموركن رح تكون أحسن وما عاد تعملولنا عيّ..».

«أي ساعة؟».

«بس تفيقوا.. بتكون غراضكن جاهزة.. بس إفضى أنا بجي.. أو ببعت حدا ينزلكن لتحت..».

مرة أخرى تكتسب كلمة «تحت» كل هذه المعاني الضبابية المخيفة، «تحت» هنا هو جناح السياسيات، حيث سمعنا أن آيات وهدية وطل موجودات هنا، سمعنا أيضا أنه يسمح لهنّ بالتنفس، ولعب الريشة الطائرة، وقد رأتهن سريعاً بعض السجينات وهن ينشرن ملابسهن على الشرفات ما بعد الظهيرة، إذاً سأرى طلّ!

نحاول النوم، تقلا تخاطر وتناديني من بين قضبان غرفتها، آتي ودموعي: «بكرا نازلين لتحت..».

«العدرا تحميكن يا حبيبتي.. ديري بالك على حالك وضلي اكتبي.. وما تخافي.. وتذكري إنه فيه ناس كتير حبتك هون.. وبتحبك برا..».

وجه تقلا كأيقونة لا يفارقني، فلا أنام، دموعها، المسافة بين يديها هناك ويديّ هنا، هذا الممر البارد الفارغ المليء بحبي لها، ربطات الخبز التي لطالما طلبناها ليلاً ممن لديه، هذه العشرة وهذا الوفاء، كل ذلك يجعلني لا أنام..

أتفقد أغراضي، قصائدي لأحمد، الطفل الذي رحل بعيداً عن حضني، ولملك الشقراء الجميلة، ولأمي، وقهوة أمي، وأتفقد أيضاً ورقة سجلت عليها رقم فرح، أخت لؤي، بعد أن رددته طويلاً في الفرع يوم لم يكن لدي ورقة ولا قصاصة، ولا قلم، أعيد حفظه في قلبي من جديد، ربما فتشوا أغراضي غداً وانتزعوه مني، أردده تعويذة من العالم العُلويّ، وأغفو..

ترى هل غادر لؤي فرع الأمن السياسي؟ هل هو في سجن عدرا الآن؟ أم أنه حر؟ هل يسأل عن أخباري؟ هل ما زال يذكر اسمي أصلاً؟ اشتقت لقرع بذور الزيتون على بابه، اشتقت لصباحاته وشعره المجعد يطول خواتم لا تنتهي...

ويطلّ الصبح، الشمس تشرق لترى أين سنذهب، أوقظ ملك التي لم تكف يوماً عن كونها ابنتي، وأوقظ نوال التي وصلت إلى عدرا منذ أسبوع،

نشرب قهوتنا، نتفقد أغراضنا، الخضار التي سنصحبها معنا، والأهم من ذلك كله: الطنجرة التي نسخن بها الماء على المدفأة، كي نستحم، سلاحنا الاستراتيجي ضد البرد!

تدير مشرفة الجناح ميس عملية نقلنا إلى الأسفل، بوجود الملازم محمد، فتيات كثيرات تندفعن لحمل أغراضنا ومساعدتنا، وعيونهن مليئات بالخوف علينا.

نترك أسرّتنا الحديدية فارغة، ونحن لا نعلم ما إن كنا سنجد تحت، أسرّة ننام عليها أم لا.

أسرق لحظة انشغال الجميع بالنظر إلينا ككائنات مغضوب عليها ذاهبة إلى العالم السفلي، أعانق تقلا الواقفة على باب غرفتها: «ديري بالك على حالك..».

«إنتي كمان..».

لا نكاد نفهم كلمات الوداع لتزاحم الغصات، أحتفظ بعناقها للحظة وبرهة، ونمضي!

ننزل الدرج، نمشي عشر خطوات للأمام، ننعطف يساراً، نجد مهاجع كبيرة على طرفي الممر، عن يميننا يفتح باب أكبر المهاجع، امرأة تقارب الأربعين تغطي رأسها ويبدو وجهها الأبيض، تنظر إلينا وإلى الملازم بعتب: «سيادة الملازم.. نحنا ألنالك أنه ما بدنا بنات.. نحنا محكومات هون ومتعودين على بعض ومو سهل نتأقلم مع بنات جدد..».

«مبلي مبلي.. هدول صبايا كويسات.. مندسات جداد.. وبكرا بتصيروا إنتو ويّاهين سمن على عسل..».

«سيادة الملازم بدي ألّك بس مشان البرد.. رجليي كتير عم يجعوني من البرد هون.. بدي شوف الدكتور بلكي بيعطيني دوا.. الله يخليك!!».

تحت، مكان بارد، لا تصل الشمس الشتوية إلى الساحة التي تتوسط

المكان إلا بصعوبة، ولفترة قصيرة، سبعة أسرّة حديدية في الداخل، ونحن ستة: نحن الثلاثة، ومنال، التي تؤلمها رجلاها، وصبية قوية مقاتلة من جبال الأكراد اسمها هدية، وفتاة في العشرين، بوجه شاحب وابتسامة عذبة!

«إنتي طلّ؟».

تقف باسمة، معتزة بنفسها، وتجيب بعد لحظة: «إي.. طلّ.. إنتي بتعرفيني؟».

«ليش فيه حدا بهالبلد ما بيعرفك؟!».

تمسكني من يدي فرحة كطفلة وتجلسني على فراشها: «هاتي لشوف.. شو بتعرفي عني؟ شو عم يحكوا الناس عليّ؟ هنن بيعرفوا إني بريئة؟».

الشرطية التي تقف على الباب تقطع سيل أسئلة طلّ: «سيادة العقيد جايي يشوفكين.. وقفوا كلكين..».

تهرب طلّ إلى الحمام وتقول لمنال: «إذا سأل عني قوليله عم تتحمّم.. ما بدّي إتصبّح بخلقته!».

أضحك من قلبي..

تحكي لي طلّ مساءً عن طفولتها، ومدوّنتها، أفكارها البريئة، ثقتها الطفولية بكل من حولها، وعن المكيدة التي أوقعت بها وأوصلتها إلى هنا، طفلة في السابعة عشرة، تعيش حريتها بين مصر وسورية، لا ترى حرجاً من أن تبوح بأفكارها، ولم تكن تدري أن أحد أصدقائها هو ضابط استخبارات قدّم نفسه مراراً لها ولعائلتها على أنه موظف مدني في السفارة، وانتهى الأمر بتقرير من العيار الثقيل، بأربعين صفحة على طاولة «علي مملوك»!

الطفلة التي قضت تسعة أشهر في الفرع الخارجي، رافضة مراراً التوقيع على اعترافات كتبوها هم، اضطرت للتوقيع أخيراً منسحقة تحت ضغوطهم، اقتيدت إلى سجنها الانفرادي في سجن دوما للنساء، حكم

عليها بالسجن لخمس سنوات، قضت وقتاً مع الجرذان، ومع الألم، تفكر بأهلها، وألعابها، ودبدوبها الجميل، أضمها مساء وهي تسألني مجدداً: «شوّهوا سمعتي يا هنادي..يا هنادي.. أكيد الناس برا بيعرفوا إني بريئة؟».

وأجيبها بلسان السوريين جميعاً، ودموعي تغسل وجهها الطفوليّ: «إي يا طلّ.. كل الناس بتعرف...الشمس ما بتتغطى بغربال...».

عائلة الحرية

اليوم الأربعاء، أفتح عيني لليوم الثالث في جناح السجينات السياسيات، طلّ تروح وتجيء قربي، ترتدي ملابسها وكأنه يوم العيد، تحلّق ابتسامتها في صباحي، تقف الشرطية على الباب: «طلّ.. إلك زيارة..».

الشرطية ذات الجسد الضخم تقف على الباب منتظرة طلّ، التي تضع شالها وترخي شعرها فوقه، أقوم وأصبّح على الشرطية، ترد وكأنها لا تراني، ألتفت متجهة صوب المطبخ، وكأس النسكافيه يداعب خيالي النائم..

«هلق إنتي هنادي مو؟».

«إي..».

«إنتي بتعرفي أنه أبوكي توفى ما هيك؟».

أقف أمامها دون أن أعي حرفاً مما تقوله: «شو؟ شو عم تقولي؟».

«أبوكي.. ما بتعرفي؟ صارله فترة.. فكرتك بتعرفي.. أنا..».

تختفي الشرطية بين دموعي، ولا أسمع بعدها شيئاً..

وبين الباب المغلق أكثر من أي وقت مضى، وجدارن الغرفة، أدور فلا أعي شيئاً، أمشي وقدماي كلهما إصرار على أني يجب أن أخرج، لقد توفي! لقد توفي حبيبي ولم أكن بجانبه، لم أغسل قدميه، ولم أضعه على فراش من بياض، ولم أقبّله القبلة الأخيرة قبل رحلته إلى الشمس.

أتذكر يوم كنت صغيرة، في الثامنة من عمري، كنا نحرس الأرض أنا

وأخي نبيل، كانت تمطر، ثم أشرقت الشمس، كنا نريد أن نتسلى فلا نشعر بوقت الحراسة، أمسكنا مقلاعين صغيرين وكانت لعبة الفوز من يصيب الآخر، سددت أولاً، لم أصبه، ذهب حجري الصغير أمتاراً بعيداً عن أخي، نظر إلي ضاحكاً، سدد، ولم أشعر إلا وخيط أحمر ينساب بين عينيّ، وأبي جاء صوب دمي النازف على جبيني، قبل أن أعي ما حصل!

وضع رماد سيجارته على جبيني، مزق قميصه الأبيض وضمدني، وعنّف أخي الذي لم يدرِ يومها ما الخطأ الذي نقترفه، لقد كنا نلعب!

وفي السبت الأخير من تموز 2011، كنت أداري مشاركتي في دعم الحراك ونقل أخباره، كنت أداري حلمي بممارسة دور ما لصحفية صغيرة مستقلة تراقب وترصد ما يحصل من انتهاكات، ذاهبة إلى دمشق، لحق بي أبي يومذاك وبيده خمسمئة ليرة لم يكن يملك سواها، مدّها صوبي معاتباً إياي لعدم أخذها: «خديّا يابو إنتي بغربة.. ما بتعرفي شو بيصير معك!».

رفضت أخذها وأكملت طريقي هاربة من نظرة عينيه، لم أكن أريد أن أخبره كم أخفيت عنه أشياء، هو الأب الذي منحني كل حنان العالم وعطائه!

ولم ألتفت مرة أخرى..

أضغط على الزر المخصص لاستدعاء الشرطة، تأتي إحداهن: «شو بدك؟».

«بدي مدير السجن.. العقيد...».

ملك التي فتحت عينيها على الخبر تنظر إليّ خائفة، تحار ماذا تفعل أمام حناني وقوتي، تستسلم للخوف وتجلس على فراشها ويداها في حجرها..

ويأتي سيادة العقيد: «اسمحيلي عزيكي يا زحلوط.. الحقيقة موقف صعب.. وما بعرف شو بدي قلك...».

«ما تقول شي.. مابدي تعزيني.. إنت هون سجان وأنا سجينة.. إنت ما بيحقلّك تعزيني.. من حقي إحكي مع أمي وعزيها.. صارلي تلات شهور بقلكن بيي على فراش الموت.. وأمي مريضة.. خلوني إحكي ممن اتطمّن عليهن.. بأي شرع عم تعاقبوني؟ شو هالقانون اللي ما بيسري غير علينا نحنا السياسيات لحتى نتمنع من الحكي مع أهالينا؟! إذا نحنا مجرمين بيضل إلنا حق نكون متل باقي المساجين!».

«أنا رفعت طلب للسيد وزير الداخلية منشان الاتصال التلفوني وإجا مع الرفض.. أنا موظف هون.. شو بقدر أعمل؟».

«فإذاً اتحمّل مسؤوليتك إنت ووزيرك (يعلو صوتي).. أنا من هلق مضربة عن الطعام لحتى تخلّوني عزّي أمي.. وساعتها قولوا للناس ماتت لأنه ما قدرت تعزي أمها بوفاة أبوها..لأنه الطلب إجا مع الرفض!».

أدير وجهي إلى الحائط وأرفض الكلام مع الموظف، فيستشيط غيظاً وترتفع نبرته وهو يغادر، تقفز صوبه ملك بحركة مفاجئة وتصرخ في وجهه وهي تشير بيديها: «لك إنتو ما فيكن إحساس.. لك ما عم تحسوا هالبنت شو عم يصير فيها.. لك عم تقلك أنه أبوها متوفي وهيي هون.. محبوسة.. بتقلها الطلب إجا مع الرفض!».

ألزم مكاني، وملك التي تطلق العنان لصراخها يخبرها مدير السجن أن عليها تحضير نفسها للذهاب إلى المنفردة، فترد بصوت واحد: «ليكني جاهزة!».

ترجع طلّ من زيارتها وتضمني: «يا حبيبتي.. أنا خبرت ماما هلق وقلتلها شو صار.. ما تخافي.. نحنا حدك!!». أربّت على كتفها، ودموعي على أبي لا تجف..

أتطلع إلى سرير ملك، إلى الورقة التي تحمل رقم فرح، وأفكر بلؤي، الأحزان بحاجة إلى رفاق زنازين كي يخففوا من وطأتها، أتطلع إلى طلّ، أكان ينقصها آلامي هذه الطفلة التي قادها القدر إلى هنا؟

أشرب الحساء الذي أعدته هدية، أميرة الخرز، كما أسميتها، ولا تدع لي مقاتلة الجبال مجالاً للدموع، ابتسامتها تعاتبني..

«لا تزعلي يا حبيبتي.. بكرا بتطلعي وبتشوفي أمك.. وهوّي الله يرحمه.. أكيد كان فخور فيكي..».

تدمع عينا منال، التي حكمت ميدانياً منذ أحد عشر عاماً، أنجبت طفلها الثالث في السجن، وها هو ذا يكبر اليوم مع أخويه، زوجها أيضاً معتقل في سجن الرجال بـ عدرا، بقي زوجها لسنوات يتصل بأولاده مخبراً إياهم أنه في الخليج مع أمهم، وفي كل اتصال يخترع حجة لعدم اتصالها، «في السوق»، «في العمل»..

إلى أن شاهدت صورهم، ثم لامست أصابعهم من خلف القضبان..

تباً لك أيتها القضبان، كم ورائك من ألم!!

كفراشة، على استحياء، تعود ملك بعيد التاسعة، تنظر إلي من بعيد، تقف، تركض صوبي: «شو بحبك يا زعرة..». أصمت وألوذ بحضنها..

عند الحادية عشرة، مضى ساعات على التأمين المسائي، وقت سمعنا خطوات عند الباب، إنه مدير السجن مع أبي نغم وأبي تيمور، يستدعيني أنا وملك للخارج، ويقول لنا وهو يداري ابتسامته: «إجا اليوم إخلاء سبيلك يا زحلوط.. ومن هلق فينك تضبي أغراضك وتطلعي.. محاميتك ناطرتك برا..».

«وملك؟».

«ملك عندها مشكلة صغيرة وبكرا بيخلي سبيلها القاضي من القصر العدلي..».

«رح ضل اليوم هون.. ممكن؟ بكرا بطلع مع ملك..».

«بدك توقّعلينا ورقة تقولي فيها إنه بدّك تضلي بالسجن..».

وأوقع وأبصم بيديّ على ورقة للبقاء ليلة أخرى في السجن، مع ملك.

لم أعرف هل أنا قادرة على الإحساس بطعم الحرية بعد طعم الموت، موت أبي الذي لا أعرف كيف رحل، لكنني أعرف أن لي في ملك اليوم أختاً لم ينجبها أبواي، بل أنجبها قلبي..

وأسهر حتى وقت متأخر مع طلّ، تلقنني وصاياها، وتختمها صباحاً وأنا أودّعها على الباب: «هنادي.. لا تنسيني.. إي؟».

أحس أني أطير، أغادر السجن أنا وملك، يقلّني صديقنا علاء، لأرى الدكتورة سريعاً وأنا أتلقى الاتصالات حول الإفراج عن ملك من القصر العدلي، وفي وسط تلك الضجة يفرملني خبر صغير، مقتضب: «ريم التقت بملك في القصر العدلي، وقد يتم تحويلها إلى عدرا!».

طيور تخرج، طيور تسجن، وأقفاص مزدحمة، مزدحمة.

مساء ذلك الخميس عانقت مازن طويلاً قبل أن تأتي يارا، وألقي بحزني وتعبي لديهما، وهناك اتصلت بأمي..

«أمي حبيبتي.. اشتقتلك يا غالية..».

«وأنا كمان اشتقتلك.. وناطرتك..».

«العمر إلك يا عمري!!».

«تعيشي إنتي يا بنتي..العمر إلك ولإخواتك..».

«صحيح إخواتي تبرّوا مني يا أمي؟».

«مين قلك هيك يا ماما؟ بتجي من بكرا لهون يا أمي.. هادا بيتك.. بيت أبوكي رح يضل مفتوح إلك كل العمر..».

وأقفل الخط، وأذهب مع مازن ويارا إلى بيتهما الصغير حيث أعطياني غرفة..

«قديش كنت تحبني يا بيّ.. مارحت لحتى تطمّنت إنه في حوالي كتير إخوات بيحبوني...».

فنجان قسوة

أغادر مكتبي «السابق» في وزارة الزراعة، حيث كنت أشرف، منذ ثلاث سنوات على عمل الثانويات الزراعية في جميع أنحاء سورية، «كفرنبل»، «كنصفرة»، «دوما»، «حمص» وغيرها، لم تكن تعني لي سوى طلاب وأساتذة وجداول امتحانات، ومشكلات عويصة حول كرسي المدير، أما اليوم فأعرف بعد اعتقالي الأول أن كل تلك الأماكن ليست سوى أجزاء من سورية، الصارخة بفم واحد للحرية، لاعنة كل كرسي!

أنزل الدرج وأنا لا أزال غير مصدّقة لما بين يدي، إنه قرار فصلي «التعسفي» الموقّع من رئيس مجلس الوزراء «عادل سفر»!

كنت قد تقدمت بطلب عودة للعمل عبر طلب بإلغاء قرار كفّ اليد الذي صدر بحقي، بسبب تغيّبي لأشهر عن العمل، وقت اعتقالي، وقد علمت أن وزير زراعتنا «رياض حجاب» قد وافق من جهته على الطلب وأحاله إلى الموافقة الأمنية، من قبل فرع الأمن السياسي الذي كنت موقوفة لديه، ومن ثم للموافقة من قبل رئاسة مجلس الوزراء. ولم أكن أصدق أن الطلب سيأتي بهذه السرعة من الرئاسة، مع التسريح من العمل دون أي تعويض ولا أي كلمة أخرى!

أفكر بأمي التي ذهبت بعد يومين من إخلاء سبيلي لتمزيتها، وزرتها لأربع مرات، عانيت خلالها مرارات السفر بظهر متعب، أفكر في أنه يتوجب

عليّ استشارة محام بارز لأحصل على رأي، وأتوجه يساراً صوب مكتب مازن القريب، علّني أفلح في رؤية «حماته» الأستاذة منى، أو في الاتصال بها على الأقل.

يواسيني مازن، وأصعد لأحتسي فنجان قهوة لدى يارا في «العليّة».

هنا، مكتب المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، المكتب الثالث، بعد مداهمتين سابقتين، كنت قد عملت سابقاً مع المكتب، أيام ما قبل الثورة، حين كان طاقمه لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكان كل منا يعمل من منزله، وفي كل مرة كانت تصادر الأجهزة، ويُقفل المكتب بالشمع الأحمر، وتذهب كل المقتنيات، ومنها المكتبة والتقارير والأرشيف، أدراج التحقيق الذي لا ينتهي، دون أن يمنع ذلك من وقوف المركز على قدميه ثانية، بابتسامة مازن التي لا تنطفىء!

يرنّ هاتفي، أجيب على لؤي الذي يسألني عن مكاني، قائلة إنني لدى يارا، أطلب منه أن نحتسي القهوة معاً، كما اعتدت منذ شهر ونصف، لدى مقهى النوفرة..

«لا ما بقدر هلق.. إنتي إيمتى بتكوني بالبيت؟».

«يعني شي ستة.. ستة إلا شوي..».

«إي تمام معناها.. بمرق لعندك وبطبخلك رز ببازاليا.. شو رأيك؟».

«لا ولو.. بشرفك لؤي.. بعدين شو طبخ ما طبخ.. حاسة حالي متضايقة وحابة شوفك هلق». لكنه أصرّ على الرز ببازلاء!

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى يارا، فقالت لي مبتسمة: «شو؟ حابة نطلع شوي ع المتحف؟».

وقبل أن أحسم إجابتي، نسمع صرخة مدوية من مها، يارا لا تلقي بالاً، وتظن أنها إحدى مزحات «عبد الرحمن» الذي يصادف عيد ميلاده اليوم، السادس عشر من شباط، وقد قررنا الذهاب معاً للاحتفال معه..

حركة غير اعتيادية في المكتب تتلو ذلك، ننزل تباعاً أنا ويارا وهاني، صوت سميح شقير يرنّ حنوناً جميلاً في الأعلى، بينما يقف على باب المكتب خمسة عناصر مدججين بالسلاح، ومها تقف باكية وسط أصدقائنا الذاهلين!

يخرج مازن من مكتبه مع الضابط المسؤول، ووجهه لا يزال يحاول استيعاب الصدمة.. «مخابرات جوية»!.. نهمس لبعضنا بالكلمة التي تجعل الدم يجمد في العروق، نشد على أيدي بعضنا، بينما يقومون بجمع هوياتنا وحشرنا في غرفة واحدة.

ما يتلو ذلك، شعور غريب ينتابني، رغبة في الركض بعيداً عن القضبان التي تنتظرني، حالة من الرعب تجمدني مكاني، ووحده النظر إلى مازن ويارا يذكّرني بمثل كانت تقوله أمي: «حط روسك بين الروس.. وقول يا قطّاع الروس!».. فقط لو أن لؤي قبل دعوتي لفنجان القهوة، لما اضطرني لقبول فنجان المخابرات الجوية!

أحس بتنميل في جميع أطرافي، ألم حاد في ظهري، ننزل من الباص الذي يقتادنا إلى سجن المزة العسكري، ليقوموا بتفتيشنا واحداً واحداً، ابتداء من مازن، يضعون على عينيه عصابة غليظة، يقتادونه إلى زنازين فرع المخابرات الجوية التي تفوح منها رائحة الموت منذ عشرات السنين!

بين الألم ومحاولة الاستيعاب أتذكر أنني سمعت يوماً أن صلاح جديد، كان محتجزاً هنا حتى مقتله في ظروف غامضة، وتدوّي من جديد في أذني صرخات ابنته التي خرجت إلى الشارع سنة ألف وتسعمئة وثلاث وتسعين تصرخ: «لا إله إلا الله.. والشهيد حبيب الله».

اليوم سورية كلها تعيش ما عاشته تلك العائلة، وتهتف للشهيد معها..

وضعونا نحن الفتيات معاً، أنا ورزان غزاوي ويارا وميادة وسناء، وفتاة أخرى لم أعد أتذكر اسمها. تشاورنا في خطورة الوضع، وعيوننا تتفحص

الحيطان بحثاً عن كاميرا أو ميكروفون زرعوه، إنه الاعتقال الثاني لي أنا ورزان، وفيما تبدو هي قوية ومتيقظة، يبدأ الإنهاك بإصابتي بشكل كامل..

لم أشبع أنا بعد من أوكسجين الحرية، لم أُمنح الوقت الكافي كي أرى لؤي، وأضمّه كما أتمنى، ما زلت مشتاقة للشام، قدماي وقدماه بدأا اعتياد المشي معاً في القيمرية، شفاهنا أيضاً تشتهي البوظة في «بكداش»، ويداه تسندانى وأنا أصعد درج المنزل الصعب، أين يداه الآن؟

نؤخذ واحدة وراء الأخرى، لا أدري إلى أين!

يأتي دوري، يصطحبني العنصر معصوبة العينين ويده تجرّني خارج مبنى الزنازين، نمشي نحو مبنى آخر، الوقت المرعب وقت طويل حتى وإن كان لخطوات عابرة فوق ممر قصير!

نلج غرفة صغيرة فيها كرسي، أسمع صوتين مختلفين لامرأتين شابتين، ينتظر العنصر خارجاً، تقترب إحداهما مني وتنزع العصابة بحركة واحدة طالبة مني التعريف باسمي، أجيب وأنا أنظر إليهما، غير مصدّقة أنه قد تم جلب امرأتين من ملهى ليلي أو ما شابه لتفتيشنا، أليس هنالك شرطيات هنا؟

تنزع المرأة القصيرة عني ملابسي: «من وين إنتي؟».

«من اللاذقية..».

تتوقف أصابعها للحظات، ثم تبدأ بتمزيق ملابسي بسكين كانت في يدها، ويصيبني الرعب في روحي قبل جسدي!

تنتهي هي وصديقتها الطويلة من تفتيشي الممتد إلى ما بعد ملابسي الداخلية، تصرخ بي أن أرتدي ثيابي الممزقة، ألتحق بصديقاتي المعصوبات الأعين في مكتب «الضابط» الشجاع الذي حرص أن يحدثنا دون أن نرى وجهه!

تمدّ يارا يدها وتمسك بيدي المرتجفتين، وأعود معها إلى الزنزانة

راغبة في النوم أطول وقت ممكن مغمضة عيني عن بشاعة العالم كله! وبدل أن أطمئن يارا، التي تُعتقل للمرة الأولى، كنت بحاجة إلى من يضمني، ويوقف ارتجاف جسدي من هول هذا التفتيش اللعين!

يدعونا الضابط واحدة وراء الأخرى لاستجواب سريع، وفي الممر المؤدي إلى غرفته، نرى مازن الجالس في البرد والمطر خارجاً، معصوب العينين، ترى أي تهديد هذا؟

أؤكد للضابط أنني صديقة لمازن ويارا، وجئت لاستشارة قانونية، وكنت ذاهبة لاحتساء فنجان قهوة لم أوفق في الوصول إليه، فيصرّ أن يقدم لي هذا الفنجان الموعود هنا!

الفنجان الأكثر مرارة أحتسيه ومازن جالس على بعد خطوات خارجاً، في البرد، وأنا لا أعلم ماذا ينتظرنا في هذا الجحيم!

ونخرج مساء الأحد، الثامن عشر من شباط لعام ألفين واثني عشر، وقد وافق رئيس الفرع على اقتراح يارا أن يفرج عنا نحن الفتيات، على أن نعاود المجيء حين التحقيق، ونوقّع موافقين أن نراجع فرع المخابرات الجوية بسجن المزة العسكري يومياً، إلى أن تحال القضية للقضاء.

أمسك بالهاتف، أرى من جديد يديّ الراعشتين، أؤجل الاتصال بلؤي حتى الصباح، فأنا لا أعلم بالضبط كم من فناجين القهوة ينتظرني بعد، في هذا الجحيم الذي وقّعت على العودة إليه!

نغادر الغرفة التي جلسنا فيها منذ الصباح، ننتظر تحقيقاً لم يأتِ، يعيدون لنا هوياتنا وهواتفنا النقالة التي سلّمناها على باب السجن، نوقف سيارة أجرة وننطلق بعيداً عن سجن المزة صوب دمشق..

أفتح الهاتف عندما أجلس في المقعد الخلفي: «لؤي يتصل بك...».

«إي لؤي...».

«لك وينك إنتي؟ مو على أساس طالعوكن من مبارح؟».

«إي.. نمت عند يارا مبارح.. كنت تعبانة...».

«وهلق؟».

«صرت أحسن.. رايحة عالبيت...».

«جايي لعندك.. ممكن؟».

ينتظرني جالساً عند الباب، ينظر إلى تعبي وأنا أصعد إلى الطابق الأخير منهكة، يتملّى في آثار الاعتقال الظاهرة على جسدي، ويجد في منزلي لحافين، يلفّهما حولي دون أن يتوقف ارتجافي، ويذهب صامتاً ليحضّر القهوة..

لقد اعتدت على التصرف كفتاة ناضجة، قادرة على تدبّر أموري في أصعب الظروف، لكنني في حضرة لؤي، لا أعرف كيف، كأنني أعود طفلة، أترك ليديه أن تعتنيا بي، ولا أجد الدفء والأمان إلا بين يديه.

متعبة أنا يا لؤي، متعبة ولا أعرف كيف سأنام، ويغفو جسدي كابتسامة بين نوبتين من البكاء..

في اليوم التالي، بعد انتظار طويل لتحقيق لا يأتي، يتصل بي أخي نبيل، مطمئناً عليّ، ومستفسراً عن الأمر، فقد أخبره صديقه أن أخته (أي أنا)، معتقلة للمرة الثانية، أرى عدم استعدادي للاعتراف بذلك، ولمواجهة نتائج هذا الاعتراف، أفضّل الكذب، نافية أي اعتقال!

وأغلق سماعة الهاتف..

بداخلي، أود لو يهرب صوتي نحو أذنه، لو أحكي له عن كل شيء، عن استباحتهم لأخته، عن السكين التي مزقت ملابسي، عن آلامي كلها، وهو الطبيب الذي أثق به، وصديق روحي الذي أرتاح لمصارحته، لكنه سيقول لي حتماً: اتركي كل شيء وتعالي لمنزل أهلك، ستكونين بأمان، ولا يعلم أن الأمان ليس كل شيء، السوريون تركوا الأمان ومتعته بعد عشرات السنوات، ليواجهوا خوفهم ويثوروا، ويجب أن أكون معهم، سأشتاق إلى حضن أمي، أعرف، لكن منزلنا سيكون السجن الطوعي لضميري، وسأفقد ثقة الجميع بي، ثقة أسرتي، كما كل السوريين، ولن أكون أنا، سأكون خوفي وضعفي المجردين..

وتمضي الأيام رهيبة، بين الدخول لجحيم المخابرات الجوية بالمزة والخروج منه، يغدو الوقت الآخر بعيداً عن الجحيم تكراراً مرعباً لأصوات نسمعها هناك، في غرفة انتظارنا الصغيرة التي يسكنها الصقيع..

تبدأ الفتيات بإدمان حياكة شالات الصوف لأحبائهن، دفء يحاولن القبض عليه وصنعه بأيديهن علهنّ لا يسمعن تلك الصرخات، يحلمن بأعناق سيلفّونها بدفء صنعنه، فيما يداي ترفضان حياكة أي شيء، يداي مرتجفتان من أصوات نسمعها بغتة، فتطفئ نور ابتسامة عابرة لوجوهنا، وأحس بتنميل في كل أطرافي، وأنا أتخيّل ما وراء صرخات التعذيب من أدوات حادة، وضرب بالسياط، أو كيّ بما لا أدريه..

تخيُّل المخاطر أصعب من مواجهتها، هكذا كان حالنا، أنا ويارا ورزان وسناء وميادة، في تلك الغرفة الصغيرة، كنا كفئران تجارب، نسجن ونسمع أصوات التعذيب، فنتعذب أكثر من مطلقيها، خائفين أن يكون أصدقاؤنا هم المتألمين..

يتصل بي أخي من الضيعة، يسألني عن مكاني، وقد اتصلوا بالوزارة، وأعلمهم أحدهم أني لم أداوم منذ عشرة شهور، أؤكد لأخي أني أداوم في الوزارة، وأنه لا بدَّ من خطأ قد حدث، وأعطيه عنواني في الشعلان لو أراد المجيء، فأنا هنا!

أغلق الهاتف اللعين مستغربة من إصراري على الكذب..

لقد تمَّ فصلي من العمل، ووجودي في هذا المنزل صار خطراً، أنا لا أريد العودة إلى منزل أهلي، وأنا مضطرة للذهاب كل يوم إلى فرع المخابرات الجوية بالمزة، وإنها مسألة وقت كي يعلم أهلي بذلك، وأنا أكذب!

أقرر أن أترك هذا المنزل، أذهب للسكن في قبو في ركن الدين..

ومن ذلك القبو الصغير أخرج كل يوم مع شاي وسندويشات أحضرها كي نفطر، هناك، في فرع المخابرات الجوية، وأعترف كل يوم لنفسي أنها محاولة فاشلة لجعل الأمور تبدو روتينية وطبيعية، كل لقمة في هذا المكان تترك ألف غصة، وبعد كل ابتسامة هنالك مليون دمعة في عيون قلبي..

وبعد شهر من المراجعات، وبينما أنا وحيدة في القبو، أحدّث لؤي أن يأتي لشرب القهوة معي، ويرفض لأن صديقاً يريد أن «يفرمت» كمبيوتره لديه في المحل: «إي تعال إنت وياه كمل الشغل هون..».

«طيب شوي تانية بخبرك..».

أغلق الكمبيوتر وأغفو قليلاً، أستيقظ بعد ساعتين، من الشباك الوحيد لدي، أدرك أن الظلام قد لفّ ركن الدين، أحس بوقوع مصيبة، أتصل بلؤي:

(إن الرقم المطلوب مغلق.. أو خارج نطاق التغطية.. يرجى إعادة المحاولة بعد قليل)..

أتصل من جديد: (إن الرقم المطلوب...).

تقرع ملك جرس الباب، في عينيها خبر.. تدخل دون أن أتمكن من الترحيب بها.. «هلق اتصل فيني صديقنا.. أخدوا لؤي..».

«طولي بالك..».

في هذا المساء تتصل بي فرح، أخت لؤي، ولا أعرف بماذا أجيبها، تقول لي بأن لديهم معلومات بأنه في فرع الأمن السياسي، وفي اليوم التالي أغادر الجوية متوجهة إلى الأمن السياسي في الميسات، أطلب مقابلة الرائد وسام وبيدي أدوية لؤي، أطلب منه فقط تمرير الأدوية لـ لؤي، طالبة الاطمئنان عليه، لأن لديه إصابة في عموده الفقري، وقد أجرى عملية جراحية بعد اعتقاله الأول، فيجيبني مؤكداً أن لؤي ليس لديهم، مضيفاً أنه غالباً لدى فرع أمن الدولة بالخطيب، فالفرعان هما المسؤولان عن منطقة ركن الدين..

أعود إلى المنزل، أقابل فرح وأعيد لها الأدوية، ونبدأ معاً رحلة البحث عن أي خبر عن لؤي..

شهر آخر يمضي في مراجعة المخابرات الجوية، يخرج معتقل من الخطيب ويخبر فرح أنه شاهد لؤي وأنه ما يزال حياً، فهناك من مات اختناقاً في جماعيتهم تحت أقدام معتقلين آخرين!

ينتصف شهر نيسان، ويرسل لنا لؤي خبراً مفاده أنهم أنهوا التحقيق معه، وأنه يتوقع تحويله للمحكمة خلال أيام، فأنهي «دوامي» المقرر في الجوية، وأكمل ما بعد الظهر في القصر العدلي بحثاً عن اسمه بين قوائم المحوّلين للقضاء.

وفي صباح الحادي والعشرين من نيسان، ندخل سجن المزة العسكري

دون أن نعلم ما ينتظرنا، فقد أخبرونا منذ يومين أنه سيتم تحويلنا إلى القضاء، نحن الفتيات، مع عدد من موظفي المركز الرجال، وأن مازن لن يكون بينهم!

ننتظر تحويلنا للقضاء، نجلس على نار، بينما محامونا ينتظرون في القصر العدلي، وفجأة يهز انفجار الأرض تحتنا، يبدأ الرصاص بالانهمار على غرفتنا!

جبهة كاملة تفتح علينا وعلى المبنى المجاور، أسمع صرخة ميادة، أرى يارا تمسكها وتحاول توجيهنا نحو زاوية الغرفة، الباب أغلق علينا من عزم الهواء المضغوط، رزان تقفز من الشباك وتفتح الباب، تدخل علينا، تصنع من «الكنبات» خيمة صغيرة نجلس تحتها، ميادة تصرخ باكية: «يالله.. رفقاتنا.. رفقاتنا تحت!».

وتصمت بطلب من يارا التي تحاول استيعاب ما يجري، ورزان وسناء تحاولان الاحتماء من الرصاص ومن الخوف، بينما يقف جندي على الباب المفتوح وبيده مسدس سدّ فوهته بإصبعه، وقال: «ما تخافوا.. ما تخافوا..».

لم يدرِ المجند أن الضباط المدججين بالسلاح الذين مروا خلفه جيئة وذهاباً هم سبب رعبنا، وليس مسدسه..

يستمر الرصاص ربع ساعة، قبل أن ننهض، لأكتشف أن قدمي قد تخشبت ولم أعد أستطيع تحريكها، وأحس بأن عصب قدمي هو سيل من نار ممتد حتى ركبتي التي لا تتحرك!

تسندني يارا ورزان للوصول إلى الخارج، أشرب حبة دواء مسكن للألم، ورشفة ماء، وأنا أنظر إلى أمين المستودع وهو يقترب ضاحكاً مؤكداً لي:

«ما في شي بيخوّف.. هادا انفجار ناجم عن سوء تخزين!».

الشمس تميل إلى المغيب، نحمل حقائب أيدينا ويقودنا الشرطي القادم بنا من الشرطة العسكرية إلى سجن عدرا للنساء.

عيناي ترمقان الأسوار بضحكة، شعور غريب يرتجف له قلبي، لقد دخلت قبل الآن، وهنا انتظرت ملك، ومن هنا خرجنا معاً وقهرنا هذه الأسوار.

يترك الملازم محمد جلسته عند باب السجن ويتجه نحونا: «شو يا زحلوط.. هالمرّة رجعتي ومعك كومة صبايا.. مو على أساس ما بقى فيه رجعة؟».

«مالنا غنى عنكن!».

«غزاوي كمان هون.. يا أهلا يا أهلا..».

«كيف البصل اللي زرعناه أنا وملك؟».

«إيه.. البصل.. صاروا رفقاتكن هون عم ياكلوا منه..».

يرافقنا ونحن نصعد إلى غرفة الإيداع، كل الوجوه تنظر إليّ وإلى رزان وتفغر الأفواه، وكأني بهم يقولون: إذن لم تكن غلطة، إنهم معارضون مع سبق الإصرار والترصد! إنهم هنا مرة أخرى!

حين أدخل غرفة الإيداع بعد التفتيش، أرى الفتيات اللواتي سبقنني، يارا وميادة تجلسان مع فتيات تبدو لهجتهن درعاوية، رزان تجلس متعبة

تنظر إليهن، وأنا أدخل مباشرة إلى المغسلة عند الحمّام، وأجلس وسط الفتيات، تنبّهني يارا إلى ابتسامتي، وتصرفاتي الطبيعية، بل وفرحي بالعودة إلى عدرا، ما يبدو على وجهي جليّاً، أضحك، فلقد كان خوفنا طيلة أشهر في المخابرات الجوية لا يحتمل، ويبدو الاعتقال في عدرا أخف وطأة بكثير خصوصاً مع غياب أصوات التعذيب، ووجود وجوه مألوفة في مكان اعتدناه، واعتدنا صعوبات الحياة فيه.

تناديني تقلا عبر القضبان من الغرفة المقابلة: «ولك كيفك؟».

«اشتقتلك..».

«وأنا اشتقتلك.. بس ما كان بدي ياكي ترجعي.. كنت بدي شوفك برا».

تنهمر دموعها، أمكتوب على أهل داريا أينما وجدوا الدموع؟

«هلق هاي الدموع كلها لأن اشتقتيلي ولأنه إجيت آكل معكن من البصلات؟».

تضحك الديرانية..

عدد الصبايا في غرفة الإيداع يناهز الخمس والعشرين، أفترش الأرض قرب الحائط، مدارية آلام ظهري الذي يكاد يحفّ بالأرض مع كل حركة، وأنهض صباحاً فرحة بعرضنا على المحكمة، وإن تكن عسكرية هذه المرة!

في القضاء العسكري ننتهز فرصة الذهاب إلى المغسلة بعد أخذ بصماتنا، لنلوّح لأصدقائنا: أيهم غزول وجوان فرسو وبسام الأحمد، نفرح لرؤية جوان يضحك، وبسام كذلك، نفرح لتورّد وجه أيهم رغم ملابسهم البائسة.

أتذكر صعود جوان أمس إلى الباص، أثناء اقتيادنا إلى فرع الشرطة العسكرية بالقابون، صفعه العنصر البغل لضحكته، صفعه على وجهه، غابت الضحكة للحظة عن وجهه، فقامت رزان من مكانها وصرخت به: «ما تضربه.. ما تضربه قدامنا...».

ركض عنصر آخر صوب الباص، وقال لجوان الذي توجه إلى مقعده: «تعا لهون تعا.. بدي قلّك شغلة...». همس في أذنه بكلمات متمتماً، هزَّ جوان رأسه، وذهب وجلس في مكانه..

لا أزال مفجوعة بتلك الصفعة، وبغياب الضحكة عن وجه جوان البريء.. كم نحن أطفال أمام همجيتهم، كم تورد وجه أيهم خجلاً، وفرحاً بوجودنا!

إنها ثورة أطفال في النهاية، ثورة براءة، ثورة أخلاق، ربما يقطف الكبار ثمارها، لكن في البدء دوماً يكون الأطفال ولا ثورة دونهم، ولا أوطان دونهم!

وفي القضاء العسكري ذاته، نفرح برؤية منى وخليل وميشال وأنور، يستجوبنا القاضي، ويقولون لنا بأن علينا العودة إلى السجن لحين صدور قرار بتوقيفنا، أو تركنا اكتفاءً بمدة التوقيف السابقة!

أحاول ألا أفكر بميادة ويارا، إنه اعتقالي الثالث وقد أوصيت ملك بهما، ستطعمهما حتى يخرج لؤي من الاعتقال، كلاهما لديه مفتاح منزلي في القبو، وأشتاق إلى كليهما بالقدر ذاته، أشرب النسكافيه هذه المرة وأنا أدرك أن ملك تفتقدني في حريتها، أشربها وأنا لا أعلم في أي فرع أضحى لؤي، ألديه ماء يشربه؟ من يؤنسه في الزنزانة المقابلة؟ وتتسلل الغيرة إلى قلبي، إذ أفكر في أن هنالك فتاة قد تكون «احتلت» منفردة مقابلة له، وأفضّل ألا يكون أحد في الزنزانة المقابلة، وأن يكون وحده. يا للنساء!

صابرين وآيات وأسماء، هنَّ الفتيات الدرعاويات المحتجزات معنا في غرفة الإيداع، الباقيات يتغيّرن كل نهار، الدرعاويات يستطعن الاتصال بالهاتف، مكالمة في اليوم، لكن هذا ممنوع بالنسبة لنا، ترى صابرين لهفتي لمعرفة أي أخبار عن لؤي، وتتبرع بالاتصال بأخته فرح مساء الخميس، وتأتيني صابرين ضاحكة تكاد لا تستطيع حبس الخبر: «لؤي طلع..طلع مبارح.. ما رح تطعمينا الحلوان؟».

أشتري كرات صوف كي أحيك شالاً لـ لؤي، أرسله إليه، أمزج بين الكحلي والرمادي والكراميل، وأبدأ بالحياكة. كثيراً ما أتوقف لأتخيَّل الشال على رقبته، وأقيس حجم الإنجاز وما تبقى ليستطيع لفه حول عنقه، لمنع البرد من التسلل إلى عنقه.

يارا تنهي شالها الثالث، وميادة تحيك شالات لأصدقائها المعتقلين، أما رزان فقد قررت أن تقرأ وتكتب، وأن تستثمر الوقت السجين!

أكتب قصيدة عن رفاقنا أعضاء المركز، أتركها على دفتر يارا، وبينما كنا نحاول ألا نفكر كم سيطول بنا الأمد، صدر قرار بإنزالنا إلى «تحت»، وأعرف أنني غداً ملاقية طلّ من جديد، للمرة الثانية.

أخبر تقلا ليلاً بالنزول، تبكي مجدداً: «إن شاء الله بتطلعوا متل ما صار المرة الماضية.. هالمرة ما عاد بدي شوفك هون.. بدي شوفك برّا..».

نجمع أغراضنا ظهراً، صابرين وأسماء وآيات أيضاً ينزلن معنا، أحاول معانقة تقلا ورندة قبل أن أنزل، فأنا لا أعرف متى أراهنَّ مجدداً، مخيفة هي صحبة السجن، مريرة وجميلة في آن!

أنزل في آخر القافلة، أسمع صوت طلّ تقول للملازم: «إي وينا هنادي؟ مو قلتلي بدها تجي هنادي؟».

أبتسم في وجهها وأركض لأعانقها: «هي جبتلك ياها.. بدك شي تاني؟».

ويغلق الباب ساجناً إيانا كعاشقين لم نلتق منذ حين وقد أضنانا الفراق، فلم نعد نحسّ لا بالسجن ولا بالقضبان..

طلّ لا تتغيّر، طفلة تكبر، وهدية ما تزال تبدع أعمالاً يدوية بالخرز، وتحاول التقاط بث راديو «مونت كارلو» كل مساء، علها تتمكن من كسر الحصار الإعلامي المفروض عليهنّ، وفي سبيل ذلك تذهب إلى المطبخ وتصعد فوق الكرسي وتحاول مدّ سلك معدني يلتقط الإشارة، تدهشني مقاتلة الجبال بعنادها!

صباحاً يوقظنا أبو نغم وأبو تيمور للذهاب إلى المحكمة، أضع شال لؤي على كتفي، الطريق يطول ويطول بسبب الحواجز والطرقات الخطرة، يكاد الفرح يوقف قلبي، فأنا سأرى أصدقائي مجدداً..

الجلسة علنية، والمحامون هنا، كلهم، خليل وميشال وأنور ومنى وجيهان والجميع..

أتى أهل يارا وأهل رزان، وميادة وسناء، بالطبع لم يكن أحد من أهلي موجوداً، وفي الوقت ذاته أحسست أن كل من في القاعة تربطني به صلات قرابة، أعطي الشال لخليل كي يوصله إلى لؤي.

يستجوبني القاضي أولاً، ثم أقف أمامه، قرب أصدقائي الواقفين أمامه، تحين مني التفاتة إلى اليمين، حيث الباب، أرى شاباً طويلاً، عريض الكتفين، كتّف يديه، لكن لا، أقول لنفسي، شعره قصير، ولكن بلى، إنه لؤي!

لا أعرف كيف أمسك يدي من الهرولة إلى حضنه، ألوّح له من بعيد وأهمس بشفتي: «كيفك؟».

لا يتحدث لؤي، عيناه تتحدثان...

القاعة كلها تتطلع إلى حديثنا الصامت، القاضي يرمقني بنظرة كي أصمت، ويارا تقترب مني وتقول لي: «هادا هوي لؤي؟ يخرب بيتك.. شكله شبيح!».

يتسلل لؤي إلى قربي، يجلس في الصف الأمامي، يكتشف أنور الأمر فيطلب لي إذناً بالجلوس لأني متعبة، أجلس في الصف الآخر، بيننا الممر.

«كيفك؟».

«أنا منيح إنتي كيفك؟».

«مشتاقتلك..».

«الدنية مالها طعم بلاكي..».

«شبها إيدك؟ ليش هاد المشدّ؟».

«مكسورة.. بس ما تاكلي همّ..».

ينتهي الاستجواب، ومساعد الشرطة العسكرية يقترب منا لاقتيادنا في دورية إلى سجن عدرا، يمسك لؤي بيدي ويقبّلها، والجميع ينظر إليه: «ديري بالك على حالك.. رح إجي زورك..»، أمسك يديه وأضمهما بيدي..

يتبعنا لؤي حتى الدرج، وقبل أن يقيّدوا يديّ، يطبع على يدي قبلة أخيرة ويودعني بعينيه، والشال على عنقه..

بعد ذلك بيومين، في الثاني عشر من أيار، يسمح لنا باتصال هاتفي، نشعر بأنه حق من حقوق نضال ما بعد الثورة، فقبل ذلك كان ممنوعاً علينا المطالبة بهذا الحق، أنتظر زيارة لؤي مع المحامين نهار السبت، فلا يأتي، ولا يأتي أنور وميشال اللذان وعدانا بزيارة!

في المساء يأتي خبر إخلاء سبيل معتقلي المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، دون أن نتمكن من معرفة إن كان مازن وهاني وحسين وعبد الرحمن ومنصور، قد أخلي سبيلهم معنا...

أودّع طلّ، التي توصيني بألا أنساها، وألا أعود لزيارتها، فهي ستخرج، أؤكد لها ذلك.. أودّع أسماء، الباكية، المشتاقة لخطيبها عبد، وأودّع صابرين التي تقاسمت معي حتى حصتها في الاتصال الهاتفي، والأشواق، وكانت حمامتي الزاجلة التي تتحدث إلى لؤي عوضاً عني، وتخبره أشواقي، أودّع آيات الصغيرة، التي تنتظر خروجها لتتزوج!

في الخارج تندفع كل من صديقاتي إلى عائلتها، يضمني أصدقائي ويباركون لي بالسلامة، فأسأل وعيناي تبحثان في نور ذلك المساء: «وينو لؤي؟!».

لؤي جالس بعيداً مترقباً ما إن كنت سأتذكره في تلك اللحظة أم لا، ويأتي صوبي...

اليوم أجلس في باريس، التي تنقلت فيها كثيراً منذ وصلت إليها منذ عام، كنت متحفزة للعودة في الشهور الأولى، لكني أخيراً استسلمت لفكرة طلب اللجوء هنا، ومنذ ذلك الحين استشهد صديقنا في المركز السوري للإعلام وحرية التعبير: أيهم غزول، وأضيف لمئة وعشرين ألف قامة سورية ارتقت، وما زال رئيس المركز مازن درويش معتقلاً، والناشط السلمي يحيى شربجي كذلك، اعتُقل مئات ممن أعرفهم، وعشرات ما زالوا قادرين على التنفس من هواء دمشق، وحدها رزان غزاوي استطاعت العودة لتعيش في المناطق المحررة من البلاد، ولا أنكر أني أغبطها على ذلك، لشجاعتها، وأغبطها لمعانقة تراب البلاد كل صباح، أنا التي ما زلت بعيدة عن ذاك التراب الحبيب..

لكني أثق أنه عذاب سينتهي، سينتهي عندما تقرؤون بشكل جيد ثورتنا، وتتعلّمون منها.

وعندئذ فقط، ستستطيعون بناء هذي البلاد يا ابنتي..

أمك التي تحبك كثيراً، وتنتظرك.

صدر من سلسلة «شهادات سورية»، بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.

تشكل مجموعة النصوص القصصية التي يتضمنها هذا الكتاب شهادة حية عن حقبة من الزمن السوري. شهادة فريدة لشابة حلمت بالحرية والكرامة وانتفضت انتصاراً لحلمها.

كانت انتفاضتها مضاعفة إذ بقدر ما كانت ضد الاستبداد كانت ضد الأحكام المسبقة عن المرأة وعن الانتماءات المذهبية للمواطنين.

تهدي الكاتبة شهادتها هذه إلى الأجيال السورية القادمة ممثلة بابنتها التي لم تأت بعد، وتدعوها إلى قراءة الثورة بشكل جيد وإلى التعلم منها. فعندئذ، "وعندئذ فقط، ستستطيعون بناء هذه البلاد يا بنتي..".

